مرويات المحـن

قصص قصيرة

جـــاســـم عـاصـــي

٨١٣/٩٠٥٦٣
ع٣٥٩ العتبة الحسينية المقدسة/ مركز بيِّنة للأمن الفكري والثقافي
مرويات المحن/ العتبة الحسينية المقدسة، - ط١ - كربلاء : دار الوارث، ٢٠٢٥
(١٤٨)ص ؛ (٢١)سم
١- القصص العربية - العراق - أ - العنوان
رقم الايداع ٥٩٥٩/ ٢٠٢٥

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٩٥٩) لسنة ٢٠٢٥

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق

٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:

اللجنة العليا موسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق

مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

( )

البريد الالكتروني :

www.baina.com

العراق:كربلاء المقدسة

الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٣ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني :

عمار محمد العقابي

عماد محمد البيرماني

مرويات المحــن

قصص قصيرة

جاسم عاصي

استهلال

الحروب وما تخلفه من دمار؛ محسوبة بميزان صراع طرفين باختلاف بنيتهما الفكرية والأخلاقية، وبالتالي الحضارية؛ إذ تبقى كونها أحداث ضد وجود الإنسان الشرعي والإنساني؛ فما ألفناه من حروب على طول التأريخ العراقي يرتبط بالسلطة السياسية التي تفرض إرادتها على شعوبها والشعوب الأُخرى.

وهو نمط يسري عكس الإرادة الوطنية، إن الفرض القسري لا يُعطي إلا نتائج مؤقتة وغير عادلة، لأنها أساساً تُجزيء الإرادات، وتترك ألآثار السلبية كوشم على صفحة الزمن، هذا ما عشناه كأحداث متكررة ونتائج وخيمة، ربما نعاني منها إلى الآن.

لكن حروب الشاكلة الأُخرى فهي أكثر أثراً للتدمير لأنها تستهدف الوجود النفسي ومن ثم الأخلاقي؛ بمعنى تُحدث تشويشاً في البنية العقلية، وبالتالي في السلوك الإنساني، فهي تستهدف أهمَّ ما يمتلك الإنسان وهو المعتقد، مهما كان توجهه، ولعل الأثر الذي تتركه الحروب الطائفية أبلغ تأثيراً في الزمن، وهو ما عانينا منه بعد الاحتلال الأمريكي للبلد، صحيح أن الأمريكان حاولوا انهاء سلطة الدكتاتورية، لكنَّها بدوافع ومصالح سياسية، لم نحسن كسياسيين العمل المناسب

وبدوافع وطنية، كي يستمر المسار السياسي وملحقاته على الشكل الصحيح والباني للبلد والتخلص من الضرر الذي ألحقته الحروب. إن الحرب الطائفية، إجراء تدميري مبرمج دفعنا له القرابين من أهلنا.

لقد خسر الشعب العراقي الكثير جرّاء نمط هذه الحرب التي حاولت تجزئة البلد قصد السيطرة عليه، لعل الشاهد الأوفر واقعية يكمن في ما قدّمه المواطنون من مدينة (تلعفر ـ سنجار) من توثيق للأحداث وهي شهادات صادقة، ومتفقة في الكثير من الأجزاء، مع الحفاظ على خصوصية ما عاش كل مواطن وما لحقه من خسائر، جرّاء الضغط والتهجير وتدمير البنية الأساسية لكل مرافق الحياة في تلك المُدن؛ مثل البيوت والمستشفيات والمدارس، والمساجد، وإن التخريب كما دوّن صوره البعض وهم على وعي كبير بسبب موقعهم الوظيفي، كأطباء ومعلمين ومدراء دوائر، حيث أكّدوا على أن بوادر فعل إثارة النعرة الطائفية بدأ منذ خروج الجيش من نينوى، وبقاء الحكومة المحلية التي تساهلت مع مَن يُثير مثل هذا الفعل التدميري.

وبعد سيطرة زمر القاعدة إزداد الأمر سوءاً، حيث تبلور وتفاقم بعد دخول فلول داعش إلى نينوى، وعكس الصورة الدالة على الطائفية من بعض المتخاذلين، بما يشكّل هوية المدن الدينية، ممّا تركز فعلهم العسكري في تدمير المدن والتنكيل بأهلها.

وكانت المقاومة ضعيفة نوعاً ما، لقد اشتبكت الأُمور وتداخل الأمر السياسي ليأخذ بمبادرة الإبادة الجماعية، فحدث ما حدث من ذبح على الهوية والقتل العشوائي والقصف المستمر ليل نهار، ممّا اضطر إلى النزوح والهجرة، وهذه النصوص القصصية اعتمدت على ما دوّنه المواطنون من تلك المُدن، وهي مدونات اعتمدت واقعية الأحداث وتقارب المرويات، أي أن طرح ما في الورقة عمل على تآزر ما توفر في ورقة أُخرى.

وهذا يسحبنا إلى استنتاج؛ كون ما دوّن هو نوع من التوثيق يتطلب من الذي يحوّل هذه المواد الخام إلى نصوص قصصية تمتلك صورة إبداعية قادرة على التساوي مع النصوص الأخرى الأمر الذي تطلب تجزئة ما روي، وهذا يتطلب شحذ مخيلة الصائغ السردية ليضعها ضمن النصوص الإبداعية التي كتبت عن الحروب بما فرزته من ظواهر اجتماعية وسياسية.. لكن الواقع يؤكد أن هذه القصص تندرج ضمن التوثيق أيضاً، أي أنها قصص تسجيلية، وليست إبداعية خالصة تنطلق من مخيلة الكاتب ضمن نسيجها البنيوي، إن واقعية المرائي تطلبت أن يعمل الكاتب على خلق وشائج قصصية منتظمة من جهة، والتأكيد على التكرار قصد تثبيت حقيقة ما حدث ثانياً.

إن التكرار هنا ليس سمة سلبية، بل أنه نوع من خصائص القصة التسجيلية، شرط أن يكون التسجيل مصاغ بلغة قصصية، وهذا ما حدث لكل النصوص التي كُتبت عن الحروب وتأريخ الدول وهي تمرُّ بحقب استثنائية ومدمرة، أي أن الخاصية الإنسانية تتوجب أن تمتزج الحقيقة مع الخيال في النصوص، كذلك خلق البؤر المؤثرة عند المتلقي، إن هذه المجموعة أو سواها؛ هي محاولات لتوثيق ما حدث من جرائم بحقَّ الإنسانية من قبل عصابات تعمل وما زالت تعمل على تشويه المفاهيم، سواء الدينية أو الفكرية العامة، كذلك الأخلاقية المرشحة منها، لكن تلك المتون التي غيّرت مسير المجتمعات عبر حقب وقرون، صححت مسار الإنسانية.

لذا تأتي هذه النصوص لتُشير إلى الخطأ الجسيم الذي لحق بالإنسان في تدمير بنيته المكانية والاجتماعية، كذلك التنبيه الذي يوجب أن ينظر إليه الإنسان بعيون متفتحة لما يحدث تحت غطاء الإسلام، فالإسلام واحد من الأديان التي تعرضت

لمثل هذا التشويه الذي تطور من الفعل إلى تشويهه كفكر جامع وفق تشويه خصائصه المهمة إلى تراكم الصور المدّعية بالاجتهاد الذي يضمر النوايا المدمرة، إنه يضع الاجتهاد موضع الصدارة شرط أن لا يقوم الفعل لأغراض التشويه والإساءة، من هذا نرى أن توثيق الأحداث التي لحقت بمُدن مثل نينوى وتلعفر وسنجار وغيرها من القرى والقصبات، تبقى شواهد على هذا الانحراف المذهبي والأخلاقي.

فتوجبه ذاكرة الإنسانية إلى ما هو موّثق أمر مهم لأنه السد الذي يوقظ الذاكرة لاستعادة ما حدث كدرس متنوع الأهداف، فنحن نعيش في زمن مختلف وبعيد الامتداد، ما زلنا نقرأ ما كُتب عن الحروب والفتن التي لحقت بالشعوب تدميراً وإبادة، من أجل منافع دولية بعيدة عن المنطق الإنساني، ونعتقد أنها ستقرأ في كل زمان ومكان، لأنها تسجيل واقعي لتأريخ واقعي، فكل من أسهم في تدوين انطباعاته عن الحقبة التي عانت خلالها المدن المحتلة؛ يُعد منتمياً إلى وطنيته لا غير، وبالتالي إلى دينه الذي أنتج أخلاقاً خاصة تبقى بنتائجها شاهد الزمن لزمن انصرم وجرى دون رجعة.

لقد اعتمدت النصوص المُعدة أدناه على وثائق متعددة وبأقلام متفاوتة في تعبيرها وشمول رؤيتها، وتكاد تكون متقاربة في المعلومات ممّا يؤدي بطبيعة الحال إلى محدودية استعمال الخيال، وبذلك كانت القصص أقرب إلى التسجيل وشهادة على زمن معين، إنها وثائق مهمة كما نراها، تؤدي وظيفتها الدائمة في كل زمان ومكان.

(المؤلف)

لحظات مُركزة

منذ ملاحظتي -الخاطفة لمرور الشاحنة الكبيرة أمام المستوصف- ومعرفتي بسائقها الذي أعرفه من أهالي المدينة، وقلبي لم يكن مرتاحاً، توجست شراً بالرغم من معرفتي للشخص، لأننا وبمرور الأحداث وجدنا أنفسنا أكثر حذراً وتوجساً لأبسط العلامات التي ترتسم أمامنا.

لقد أصبحنا نتوقع كل شيء ومازال الواقع يسير بشكل مغاير لما نعتقده صحيحاً، فقد أخذت ملاحظتي السريعة والمفاجئة مبلغ الجدية، كذلك الشك لا غير، إلا أنّ الانفجار الذي حدث بعد تلك اللحظات التي مرّت سريعة تأكد لي كل شيء وبأني صادق الحس والوجدان، لاسيما حين أفقت من غيبوبتي، ومعرفتي بانهيار بناية المستوصف، حيث لم يسلم غيري ممن كان في الداخل.

كانت غيبوبة طويلة المدى خلّفت بضع جراح ورضوض في جسدي، استطعت أن أتمالك نفسي وأُسيطر على قدرتي في الحركة، أخذتني خواطر كثيرة وشكوك في كل ما يحيط بي، فقد شاهدت بأم عيني كيف توقفت الشاحنة، وأخذ الناس بالتجمع حولها ما إن عرفوا بما تحويه من مادة الطحين، كطيف اندرج عقل هؤلاء الوحوش

على خسارة كل هذه المادة من أجل تدمير الناس الأبرياء، سؤال؟ حيرني كثيراً، وتأكد لي أن عقول هؤلاء منحرفة لا تعرف الصحيح من الخطأ، لقد وجدت، أننا نعيش داخل لغم دائم مازالت عصابات داعش والقاعدة يسيطرون على نينوى بمرأى من الحكومة المحلية ومن يؤويهم ويقدم لهم يد المساعدة وخارطة المُدن المذهبية.

لقد وجدت هذه العصابات مكانها لدى أصحاب النفوس الضعيفة والعقول المنحرفة، وهذا ما أكدته الأحداث المتكررة من الانفجارات المتوالية في المدينة الصغيرة وعلى مسار الطرق الخارجية المليئة بالكمائن المتربصة، كان الذبح أمام أهل المدينة مروعاً، يترك أثراً بليغاً ورعباً لا مثيل لهما.

لم اكن أنانياً واكتفي بحمد الله على سلامتي، بقدر ما كنت أتألم للمشاهد المروعة، وجراء ما سمعت عن عدد من سقط قتيلا من الرجال والنساء والأطفال وهم يهرعون على السيارة المحملة بأكياس الطحين هرعوا بكثافة لأنهم افتقدوا مادة الطحين التي تشكل وجبتهم الرئيسية. تجمعوا حول الشاحنة في نفس الوقت الذي لمحت السائق وهو يقودها مارا بالمستوصف، انفجرت عندما كثر المتجمعون حولها تمزقت اجسادهم مقطعة تكدست على بعضها كأشلاء ممزقة، حتى ضاعت ملامح الأشخاص، تداخل لحم الأجساد مع بعضه، من الصعب معرفة عائدية هذا الجزء من الجسد أو ذاك، تبعثرت قطع الأجساد بوحشية تنطلق من قلوب حاقدة سواء للسائق أو مَنْ دبر أمر الإنفجار، إنه عمل مشين ودال على حقد مدمر.

فكرت في سؤال شغلني كثيرا مفاده؛ لماذا ينمو مثل هذا الحقد عند إنسان عاش ويعيش مع أقرانه، ويصدّق الأغراب؛ يتلبس الإنسان بقوة تنسيه إنسانيته وتحرفه عن دينه ومبادئه الإنسانية، مازلنا سواسية في الخلق، ومن دين واحد يجمعنا نظام

رباني متقن، كيف تمرغت أيدي مَنْ نعرفهم وعشنا معهم من أبناء جلدتنا في المشاركة بالقتل المستمر؟ لم تردع هؤلاء قيم الأفراد والجماعات التي ترعرعت على أخلاق بنيت كالجدار بيننا، ما الذي قدّم لهم هؤلاء من إغراء سوى توريطهم بسفك دماء أقرانهم بحجة الإسلام.

خرجت من بيتي بعد أن شعرت بقدرتي على السير ومررت بالمستوصف فلم أعثر له على هيئة، كيف نجوت من الموت المحقق؟ سألت عن أصدقائي من الموظفين فلم أر غير الحزن مرتسما على وجوه من سألتهم، تمنيت أن أخلو مع نفسي طويلاً كي أدرك هذا الفقدان المستمر للبشر المسالمين، شاهدت آثار دماء أجساد مَنْ سقط مرمياً على إسفلت الشارع، وبقايا آثار الحفرة التي أحدثها الإنفجار، عرفت كيف حضر الأمريكان وعلى عجالة دفنوا الحفرة التي حوت أجساد الأطفال والكبار نساء ورجالاً طلبوا قوتهم، ليسدوا جوعهم المزمن، وتعطشهم أمام إرواء ملكة البعض المنحرف عن جادّة الدين والأخلاق الإسلامية، ساوى الجنود أرض الشارع، بل حاولوا محو آثار الجريمة التي ارتكبها الجميع محتلين وخونة وكفار دين ودنيا، لم يترك الإنفجار منزلاً قريبا إلا وسقط على مَنْ في داخله، فقد وصل صوت الإنفجار إلى مكان يبعد كثيرا عن المحلة التي حدث فيها فهرع الناس من كلّ الأنحاء للوقوف على ما حدث كما في كل مرة، ووقفوا على آثار الجريمة المروعة وقرأوا سورة الفاتحة، وبكى مَنْ غلبه التأثر والحزن، وساهم الجميع في رفع الأشلاء لدفنها في مقبرة المدينة، والبكاء لم ينقطع وهم يشاهدون ما جرى أمامهم وكل منهم يحمل ألف سؤال عن المصير الذي حلَّ بهم وبمدينتهم الأُم نينوى.

لقد اضافوا صورة حزينة إلى كلّ ما حدث معنا، وما انصب من حقد على الجميع من قبل عصابة داعش ومن آزرهم من أهالي المدينة، فما حصل لبيت

(السادة) وتفجير موكبهم المتكونّ من إحدى عشر فرداً إلا دليلاً على عمق الحقد الدفين الرابض في قلوب وضمائر البعض.

فقد أطفؤوا وجود العائلة التي لم ترتكب ذنبا قط، كان حقد الدخلاء وبعض من أبناء المدينة قد تجلّى في كل انفجار أودى بأرواح الناس الأبرياء، شاهد الجميع ما حدث، أو ادركت حدوثه كما شاهدت الشاحنة وهي تمرُّ من أمام المستوصف، كان قلبي يدرك خطورة الموقف وما يدبره هؤلاء الأوغاد والمتعاونون معهم والذين يمرحون بحرية في المدينة وكأنهم لم يرتكبوا جرائم بشعة بحق أبناء مدينتهم، إن وجودهم قنابل موقوتة، ستنفجر ما ان تحين الفرصة.

فهم كالسرطان المتمكن من الجسد سرعان ما ينتشر ويتمكن من الجسد، لقد تسببت الأحداث المتتالية في خلق نوع من اليقظة الدائمة والحذر الملازم للوجود اليومي، فالكل يدرك أن مصيره مرهون بمرور سيارة خاطفة، أو وقوف أحدهم قرب منزله أو دكانه، إن هذا ليس مدعاة للخوف أو ما زال الأمر مقدر من الله تعالى.

ولكن الذي يحدث هو من صنع الإنسان، وعمل مخالف لتعاليم الدين، لكننا اعتدنا وأخذنا ما نتمكن من حذر والباقي على الله، فالكل من أهالي المدينة يمتلك أكثر من عين أثناء الخروج من المنزل، ويحسب ألف حساب لما يرى ويُشاهد ما يجري أمامه، ذلك لأن ما يفاجئ المرء أثناء اليوم من الصعب إحصائه، فكل المدن تشهد الموت المجاني، وترى من يدخل المدينة مدججاً بالسلاح والأحزمة الناسفة، لذا فالشك في هذه الحال مفروغ من تصديقه، فالموت الذي يخطط له أذناب التنظيم من الذين وضعوهم في الصدارة لتنفيذ مآربهم، أصبح جارياً على طول اليوم، وإننا ضمن قوائم يجري تنفيذها تباعاً.

سينوا الصامدة

الصمود غير مرهون بالعدد والعدّة، بل مرتبط بقوة العقيدة وحب الأرض والمواطنة الصحيحة التي لا تقبل بديلا عن مصلحة الوطن والشعب، وما صمود قرية (سينوا) سوى المثل الأعلى لصمود المدن الصغيرة في مساحتها والكبيرة في مواقف رجالها وتأريخها، خاصة في الحروب والأزمات المختلفة في مصادرها ونواياها وبشاعتها، فهي حرب مدمرة لقيمة وجود الإنسان والوجود الإنساني وما بناه من قيّم وجمال الأمكنة وتجميل كل ما من شأنه إسعاد الناس وتوفير سُبل الراحة والأمان.

كانت الظروف التي عاشت فيها القرية صعبة ومعقدة بسبب وجود عصابات القاعدة وهيمنتها على مدينة نينوى وما تلتها من أحداث ودخول داعش بأعداد قليلة مقابل جيش مُعد بشكل نظامي لم يصمد أمام ثلة لا قيّم لها، هربت القادة وبقي الجنود وطلاب الكلية العسكرية دون أوامر، فمدينة الموصل استقبلت الغرباء بسبب بعض العناصر المتخاذلة، فقد غلب على نفوسها الحقد الطائفي، لكن السبب كامن في تخاذل بعض قادة الجيش وتركهم المقاتلين العُزّل في المعسكرات دون قادة

أمام تنظيم معد بشكل جيد وخاصة الحقد الطائفي الذي حقق لهم أفكاراً سوداء جوزت لهم تصفية الشعوب بحجة الدين بصورته المزيفة، جرائم في قتل الشباب بالجملة دون وازع من دين أو أخلاق إنسانية، قتلوا الكثير ممّن تصدى لهم واختلف معهم في المواقف، لقد تصورنا أول الأمر أن المسألة تتعلق بالحوار وطرح الرأي.

فقد فاتنا أمر هؤلاء الذين بيتوا مواقف معدة من أجل إذلال الشعوب، ومسخ تعاليم الدين بادعاءات كاذبة، كانت الأخبار تتناقل على لسان الذين تمَّ لهم الهرب من سلطة التنظيم وما ارتكبوه من جرائم لا تُقْدم عليها سوى الوحوش المتجردة من العقل خاصة اصطفاف بعض ضعاف النفوس والمغسولة عقولهم بأفكار طائفية مقيتة، فإن جملّة العوامل التي ساعدت فلول القاعدة ووحوش داعش هو اصطفاف بعض ضعاف النفوس وحقدهم الطائفي ممّا أتاح للعصابات التوسع وإحكام سلطتهم على كل نواحي المدينة، والتطاول على بقية المدن المجاورة والتابعة لها.

كانت الظروف تلك امتحاناً للجميع، راح من جرّائها استنبات فكرة توحيد الصفوف والعمل على الإستعداد لدرء الخطر المحدق بالجميع، وكان كبار السن مندفعين بمستوى الشباب، فقرية صغيرة تصمد لتلقن العدو درساً، وتكشف غباء المتورطين؛ وبالمقابل أثبتت عزة وكبرياء مَنْ أحب وطنه وضحى من أجله بالغالي؛ قرر الجميع الاجتماع في بيت شيخ من شيوخها للتداول في كيفية الدفاع، وفعلاً لبى الجميع الدعوة، وملؤوا المضافة وخارجها؛ وحين استقر الحال، قال أحدهم وهو شيخ يحترمه الجميع وتشهد له تضحياته زمن النظام السابق ومقاومته لفلوله وتقديم الشهداء مع سائر المواطنين وظلَّ الجميع مصغين إليه بتركيز ومنتظرين ما سوف يُسفر عنه هذا التجمع الخيّر قال:

- إخوتي لا يوجد مَنْ ينتبه لمجريات الواقع سوانا، فقد سُرق كل شيء وعرفنا الخائن من الذين يحبون مدينتهم ووطنهم، كونوا واثقين أن سلطة المحتل هذه زائلة إنْ شاء الله.

قال آخر متسائلا:

- وما باستطاعتنا فعله أمام فلول المحتلين ومؤازريهم؟
- لدينا الكثير يا أخي، لعل توحيد صفوفنا أهمها، كذلك تحصين شبابنا من إغراء العدو، وكذلك ما يجري في نينوى من اختطاف للأطفال وغسل أدمغتهم ليكونوا من ضمن صفوفهم في المستقبل.
- وبعد؟
- حصنوا أولادكم دينياً وحافظوا على بناتكم وزوجاتكم.
- هذا ما يتوجب الانتباه إليه.
- نحن مجردين من السلاح فكيف يمكننا مقاومتهم؟
- نعمل على امتلاك السلاح.
- ومن أين لنا به؟
- نوفر المال وتجار السلاح كثيرون.
- نحن على استعداد لما تقدمه من اقتراح بشأن شراء السلاح.
- المال زائل يا أخوتي لكن الكرامة لا تعوّض، لابد أن نضحي بما لدينا من مال لشراء السلاح.
- الجميع حاضرون.

- كثر الكلام والإصرار على التضحية مهما كان ثمنها والشيخ يصغي إليهم بفخر شديد وصبر لكي يستوعب مثل هذه التضحية حيث انبرى قائلا: بارك الله بالجميع؛ نجمع بما يتيسر من مالنا.

قال أحدهم:

- خذوا كل ما نملك، خذوا حلّي نسائنا.
- فكروا بالطريقة التي يمكن ان نقوم باقتناء السلاح.
- ليس في هذا اختيار يا شيخنا، الثقة بكل ما يوفر لنا سبل الدفاع عن مدينتنا.

قال آخر:

- سنأتي بما لدينا من مال وحلّي ولك حق التصرف بها مع بعض الأخيار.

وفعلا جرى هذا على عجالة؛ جُمِعَ المال الكافي وزيادة واختير بعضنا للعمل على تقصّي تجار السلاح، وفعلاً اشتروه بأصنافه وعتاده ووضع معظمه على سطوح المنازل لتسهيل عملية المقاومة؛ وما زلنا نتذكر الجميع ومدى الإصرار الذي قدّمه الشيوخ قبل الشباب حتى أصبحوا كتلة واحدة لا نسمح بدخول أيّ أحد حتى من المقربين الذين نشك في ولائهم؛ أحكموا حدود القرية أمام كل دخيل؛ استنجدوا بالحكومة، ولكن دون جدوى.

كانت المفارز التي نصبوها على الطرق الخارجية التي تقف ضد المتسللين، بل على العكس كانت فلولهم وجواسيسهم تتجول بحرية تامة قد لا تتوفر للجميع.

وكان صمودهم كبيراً واستثنائي مقابل تركيز العدو على القرية لمعرفته من قبل العملاء المتعاونين معهم بصمود أهالي القرية في كلّ الأزمنة ممّا ركّز على إسقاط

القرية والتنكيل بكلّ من يقاومهم أو لا يقاومهم؛ فكيف بأبنائها المتمسكين بالعقيدة والمبادئ الإنسانية، قرروا البقاء والصمود مما ركز الجهود من قبلهم للهجوم وإبادتهم فاندفعوا للخلاص من مصير بشع سوف يقوم به هؤلاء القتلة؛ قاموا بتهريب النساء والأطفال وتهجيرهم إلى خارج القرية، بعيدا عن سلطة العدو، مما ركز جهدهم اكثرهم لمقاومتهم بالسلاح الذي يفوق سلاح أهل القرية.

قدّموا الكثير وقلَّ عددهم ممّا اضطرهم إلى النزوح مؤقتاً عن القرية؛ وفعلاً خرجوا في جنح الظلام مبتعدين أكثر فأكثر، كانوا يسمعون عن تدفق فلولهم نحو القرية وإحراق كل ما يصادفونه في القرية، حرق وتهديم للمنازل، سَلِمَ الجميع مؤقتاً من موت محقق يطال أجسادهم سلاحهم الفتاك الذي غنموه من القوات العراقية المنهزمة، ابتعدوا عن هجماتهم الوحشية، موزعين هنا وهناك لا يعرف احدهم عن أخبار الآخر، نزحوا إلى مدن الوسط والمدن المقدسة، لائذين من الموت وإنقاذ نسائهم وأطفالهم، تاركين كل ما ملكوا لدمار القتلة والحاقدين، هكذا صمدت قرية سينوا لفترة غير قصيرة في مقاومة العدو، وقتل عدد غير قليل من أفراده، مما زاد من غضبهم وهُمْ يرون كيف استطاع أهل القرية مقاومتهم بالسلاح المحدود الأصناف، لذا ركزوا جهدهم وسلاحهم، وإصرارهم على إبادة القرية ومَنْ فيها.

وفعلاً حين دخلوا بسياراتهم ودباباتهم، ولم يعثروا على أحد داخلها؛ جن جنونهم، لهزيمتهم، وفشل ما خططوا من نوايا، واعتبروا الدرس هذا عبرة يجب ألا يتساهلوا مع القرى والمدن الأُخرى، هؤلاء كما وردت الأخبار أنهم ركزوا غضبهم على البيوت والمحلات حرقاً وتهديماً، خاصة المساجد ودور العبادة؛ كانت أيام صعبة، سواء فترة وجودهم في القرية، أو سماعهم ما ورد من أخبار.

نـــــزوح قسري

ما مرَّت بنا من أحداث وويلات كانت جرّاء التهاون والاسترخاء من قبل الجيش وقوات المدينة والحكومة المحلية، فقد سيطرت عصابات داعش بعد إغراء البعض من الإنضمام إليهم عبر غسل أدمغتهم بالمبادئ والشعارات الطائفية، بينما بقي البعض الكبير خارج دائرة الحلبة.

كان الصراع يدور بين أقطاب متعددة ونحن في القرى والمحلات في المدينة لا حول ولا قوة لنا، لا سيما بعد ان حدث انفجار في حي الزهراءعليها السلام وسقوط شهداء وجرحى، ثم توالت الانفجارات وزرع العبوات الناسفة على الطرق الخارجية والأسواق لإرهاب الناس ودفعهم على أن يكونوا معهم ويرضخوا لما يطلبون دون اعتراض ويؤدوا عملهم في زرع الفتنة الطائفية بما أعادوه من التأريخ الإسلامي، وكيف حاول المدعون بعد وفاة الرسولصلى الله عليه وآله وسلم أن يضعوا العثرات في طريق المسلمين، وكرروها في العهد الأُموي، وما قاموا بحق أهل البيت والإمام الحسين، وصحبهعليهم السلام، وسبي عائلته من كربلاء إلى الشام، هؤلاء ذوي الرايات السود ما جاؤوا إلا ليكرروا دور الانقضاض على الإسلام في حرب الخوارج.

كنا نحدق في هيئاتهم ونتذكر ما وصفته لنا الكتب والمرويات، نراهم لا يختلفون عن أصولهم بجلابيبهم الخشنة والقذرة وشعورهم المتهدلة على أكتافهم ولحاهم الكثة والوساخة الظاهرة على هيئاتهم، كان مشهدهم يثير التقزز والرعب في نفوسنا جميعا والأطفال خاصة، وكنا نقف رافضين إزاء ما كان يقوم به الإرهابيون بادعاء الدفاع عن العراق ضد الاحتلال الأمريكي، فقد كان هؤلاء يتعرضون للقوات الغازية، مدعين المواطنة والغيرة ومقاومة الاحتلال، لقد كنا نراقب تحركهم واستفحال سلطتهم على مدينة نينوى، والمواجهة مع الناس بتساهل خادع لكسب رضاهم، كونهم يدافعون عن الدين ضد قوى الكفر، وهذه الخدعة انطلت على الكثيرين مما سهّل الانضمام إلى صفوفهم، ناهيك عن تراخي قوات الجيش وانسحابهم عن المدينة وتركهم المعسكرات بيد الجنود الذين فقدوا أوامر قياداتهم المنهزمة، فوقعوا في بئر الموت، وسيقوا إلى مساطب الجزر بعد أن حملوهم كالخراف في أحواض الناقلات، ونحرهم على ضفة دجلة، ورمي أجسادهم في مجرى مائه، فكيف يمكن نسيان ذلك والتساهل مع من غدر بنا وعاد بعد الهزيمة وكأنه لم يفعل شيئا.

جميعنا غدونا مشاريع استشهاد ورغبة بالانضمام وحمل السلاح ضد الدخلاء والمعتدين وسالبي حقنا في الحياة؛ فقد تطوّع الكثير من الشباب واستشهد بعضهم بدافع الوطنية، لقد خُدعوا بما ادعاه هؤلاء الماكرون؛ وحين اكتشفنا الخطأ الذي وقعنا فيه، بعد أن كشّروا عن أنيابهم، وراحوا يقتلون بعشوائية وشراسة ووحشية، مما اضطر الجميع إلى التخفي لفترة يستردون فيه قوتهم وتماسكهم؛ لكن المعادلة اختلفت عند الفتوة، فقد عاد من هاجر للانضمام إلى صفوف الحشد الشعبي.

كان الشباب وهم يعودون من مدن الجنوب متحمسين للدفاع وطرد الغزاة، وكان لهم دور في تحرير المناطق التي بقيت بها جيوب داعش، لقد حاربوا ببسالة واستعادوا ما خربه الوحوش، صحيح أن ما بقي خرائب ودمار، لكن المهم من وجهة نظرهم هو استعادة الأرض وطرد المدعين، بينما تخفى العملاء، ولاذوا في الزوايا والبيوت، لم يكشفوا عن وجوههم أول الأمر، بل انتظروا حتى تحين الفرصة للظهور.

إن ما جرى على مدننا لم يجرِ من قبل؛ وما زلنا نستذكر صراخ الأطفال عطشاً وجوعاً، كأننا نستعيد التأريخ بكل تفاصيله، عاد الناس ليرمموا ما خُرب، وفعلاً كانت قناعة الجميع هو استرداد شكل المدن المخربة رغم عدم تعاون الحكومة المحلية مع أهالي المُدن، لكن إرادة الناس كانت أكبر من جبروت الطغاة ومن المحتلين وأذنابهم.

انظم أهالي المدن إلى بعضهم، وشكلوا فريقاً واحداً لإعادة هيبة المدينة، خاصة بناء المساجد، ثم البيوت والمدارس، والكل كان مبتهجاً، فقد تميّزوا بنكران الذات، وتعلموا مماّ جرى لهم عبرة، لكي لا يسمحوا لمثل هؤلاء البرابرة من الدخول بين صفوفه، خاصة أهالي نينوى الوطنيين، فقد عزموا على تهدئة المتضررين، وأودعوهم خيراً لتعويض ما خسروا، ولاسيّما سلامة الجميع، والعودة الميمونة إلى المدينة الباسلة، فهم لا يغفلون عن كل ما قدموا من مقاومة، لكن القوة التي كانت تمثلنا داعش والقاعدة، تفوق قوتهم، سلاحاً وعدداً، غير أن صمودهم الذي أذهل العدو اضطرهم إلى الهجرة والنزوح لسلامة أفراد عائلاتهم ورعايتهم في المدن التي نزحوا إليها.

كان همهم الاستقرار، وعدم تغييب صورة المدينة وما تركوه داخلها من

ذكريات؛ لذا كان حماسهم شديداً لتلبية نداء التحرير، بان انظموا إلى صفوف الحشد؛ وكانت فرصتهم التي كانوا ينتظرونها، فقد اعتمد الحشد سلاحاً ورجالاً وعزماً، وتهيئوا ورصوا صفوفهم وتدربوا ليحلوا في أرض معركة التحرير وطرد الكفار.

وكانت هذه رسالتهم وطموحهم الذي لا ينضب كالنهر، كيف يتركون هؤلاء يعبثون بمقدراتهم؛ هذا ما كان يُحدد تصوراتهم ورغبتهم في طردهم في أقرب فرصة، وهذا المبدأ أصبح الشعار الذي كمن في حسهم الوطني، ممّا دفعهم إلى تحديد إرادتهم في القتال من منطلق كهذا، ينظر كل واحد إلى الآخر، ويقول بنظراته؛ إننا انتظرنا هذا اليوم بحرقة وصبر، وحاربوا ببسالة، واستشهد بعضهم دون مبالاة بالموت، فقد تشبثوا بالعزم وحب مدينتهم وهم يشاهدونها دون وجود مثل هذه الوجوه الكالحة، التي لا تضمر إلا الموت، والكفر وتصفية الإنسان، لا لشيء سوى اشباعاً لحقدهم ورغبتهم بالموت، وما حققوه وهم يسيطرون على نينوى والمدن والقرى التي تحيطها، لا يفتح لهم إلى الموت أبوابه وفعلاً لم يخرج منهم إلا من حلق لحيته، وولى هارباً جباناً يلوذ بما تتزين به النساء لإخفاء أشكالهم، قتلوا من قتلوا أثناء نزوحهم، بل هربهم أما القوات المسلحة ذات الإيمان الفذ الذي اكتسحهم بعيداً، وهدم بنيانهم الهش، وكسر كبريائهم الذي تشدقوا به بقوة أمام الناس العُزل من السلاح، فكان لهم من أدرك فلولهم بالمرصاد، فلم يسلم إلا النزر اليسير، ولّوا هاربين تستقبلهم الكهوف والصحارى وجحور الكلاب والذئاب وبقية الوحوش.

فقد ألفوا مثل هذه البيئات، ولم يعترفوا بالحياة المدنية، فقط حياة التوحش والقتل، وكان أهل المدن المجاورة لنينوى ممّن تطوعوا في الحشد يفخرون بما حققوه مع إخوانهم في الحشد في تحرير المدن ومنها مدينتهم ورؤية منازلهم ومربع طفولتهم، إذ من الصعب قطع الإنسان من ذكرياته مطلقاً.

صراع الأضداد

صراع الأضداد يعني عودة الصراع بين الخير والشر عبر التأريخ، فقد اشتد الصراع بين رموز الخير ورموز الشر، فكان الإنتصار لجانب الخير.

وهكذا تروي الأساطير والروايات في التأريخ، فما نعيش فيه الآن هو عود لما سطرته الأحداث بحمولات العناصر التي ادعت اعتناق الإسلام والتباهي بأنهم الأهم والأكثر قدرة على إحياء الدين، فالتأريخ مليء بالمدعين ودعاة الحرص على المذهب وها نحن نعيش نفس الظواهر أمام ذوي الرايات السود ومطلقي شعور الرأس واللحى الممزوجة بالقذارة.

ونسمع الكثير عبر الرواة ومن عاش المحنة على يد سلطة القاعدة وداعش واغتصابهم للنساء سواء المسلمات أو من الديانات والطوائف الأخرى، يحزون الرؤوس ويصورون المشاهد لا لشيء سوى زرع الرعب في نفوس الناس من جهة، وإظهار الدين بهذه الصورة المشوهة من جهة أُخرى.

لكن هذا دليل على الرغبة في إشباع رغبة الإنحراف، فالكل عرف ورأى مشهد دخول داعش إلى تلعفر، وكيف أباحوا حرمات الناس بالقتل وتهديم البيوت وتصفية الآخرين وحرق جثثهم ومنازلهم أمام الجميع.

وكانت مشاهد مرعبة خاصة حرق المكتبات المنزلية وما تحتويه رفوف المساجد من كتب دينية و، مصاحف، وذهب بهم الصلف بالدخول إلى المسجد والقيام بعمل لا ترضاه الأعراف والأديان، حتى الوثنية، حيث حفروا قبر (ملة محمود برزنجي) ورمي الجثة في الشارع لثلاث أيام تحت وقد الشمس، يتناوبون على مكانها ليل نهار لمنع من يحاول دفنها من جديد، تخلل ذلك المشهد السب والشتم على حرمة الميت، وتطاولت أيديهم على المراقد المقدسة بالهدم والحرق وسكب الغل على الأحياء والأموات، يتناوبون لاقتحام المدينة في كل الأوقات لزرع الرعب في النفوس.

لكن السؤال الذي يلح على الجميع، والذي عرف إجابته الجميع أيضاً؛كيف عرف هؤلاء الغرباء بكل هذه المقامات والشواهد؟ والجواب: عرفوا ذلك من خلال عملائهم الذين اهتموا بهم وغدوا دالتهم وأذرعهم لمعرفة كل شيء تماما كما فعل الأَمويون بالتنكيل بأهل البيت عليهم السلام، وهؤلاء سدنة التزوير والتشويه للدين الذي حكى عنهم التأريخ ومرويات من كان حريصا على نقاء الدين من البدع والمظاهر الخدّاعة إزدادت مقاومتنا لهم ورفضنا لما يدعون، لقد شهدنا صور مرعبة وما انثنت عزيمتنا، لكن حين أحسسنا بعظمة الهجمة التي رائدها تصفية الجميع بالقوة المنبثقة من السلطتين القاعدة وداعش وثالوثهم بعض أهالي المدينة، فقد كانت قلوبهم مليئة بالحقد والضغينة لكل ما هو خير للإنسان.

هاجر الجميع عن المنطقة مولين وجوههم صوب الشمال والوسط والجنوب من الوطن اتقاءً لشر هؤلاء الذين كُشفت رسالتهم بعد أن عاثوا بنينوى جرماً وتصفية لكل معترض على سياستهم، ووجد من هاجر الأمان والوفاء من أهالي المدن التي استقروا فيها؛ أسكنوهم بيوتهم وحسينياتهم ومساجدهم وقدّموا لهم الكثير الذي افتقدوه وتركوه في منازلهم، وما إن استقر بهم الحال، راحوا يتابعون أخبار مدنهم

ويتلقونها بحرقة بالغة حتى أُتيح لهم التطوع في فصائل الحشد الشعبي، فكانت مقاومتهم للعدو مزدوجة، فمن جهة عدّوا تطوعهم دفاعهم عن الوطن، ومن جهة أُخرى المساهمة في تحري مدنهم المنتهكة وفعلاً نال بعظهم شرف الاستشهاد، وانتصر الآخرون على خبث وشراسة العدو الذي فرّت فلوله منهزمة في الوديان والحفر، وكمنوا في أشد الأماكن وعورة، ينتظرون أن تحين الفرصة للخروج ثانية لتقديم فعلهم الشنيع.

كان أهالي المدن أكثر حذراً ويقظة من تكرار نكبة احتلال مدنهم، وإباحتها على مرآى الآخرين، وكان قرار كل الشرفاء أن يتخاذلوا ويرموا سلاحهم، بل يتشبثون به ويمسكونه بقوة للدفاع عن بيوتهم ومساجدهم وحسينياتهم، فمثلهم الأعلى «أن لا يلدغ المرء من مجر مرتين» ما زال ثمّة عقل وإرادة قائمة على الإيمان وحب الدين، لا يستطيع المرء أن يغفل كل ما قام به أولئك محترفو القتل وارتكاب المعاصي، فقد كان بعض الشباب يتسللون ليلاً، يتصيدون من اطمأن على وجوده، فيتربصون له وسط حلكة الظلام وهدوء الليل الحذر.

وحين تحين اللحظة ينقضون عليه وعلى من يرافقه، فيشبعونهم موتاً عقاباً على أفعالهم وتخاذلهم إرضاءً للعدو، كان هذا يُثير قادتهم لحظة اكتشاف قتلاهم، فيخططون لعمليات واسعة تنكيلاً وثأراً، فلا يحصدون سوى الموت، حيث لا يعلمون أننا امتلكنا السلاح، ولنا القدرة على الدفاع عن وجودنا.

وإن هذه المواقف الجريئة زادت من حدة غضبهم وشعورهم بالمهانة، لذا قرر إمام المسجد تنظيم لقاء لكبار المدينة وشبابها لغرض التباحث في أمر ما سوف يسفر عنه جرّاء الأحداث التي نفذها شباب المدينة قائلاً:

- لا إعتراض لنا على ما فعله الشباب، فإنه عين العقل وضمن واجبهم.
- وعلّق آخر وهو من شيوخ المدينة الأجلاء:
- ماذا ترون من بعد أن أثار عمل الشباب حفيظة العدو. وأنتم تعرفون ردة فعله؟
- نرد عليهم بكل قوتنا.
- صحيح سوف لا نسكت عنهم.
- قال شيخ المسجد:
- كل ما ذكرتموه صحيح وواجب علينا، لكنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا بالعقل، وأن لا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة.
- هل نستسلم لهم؟
- لم أقل هذا، بل نفكر في ما يمتلكونه من سلاح فتك، لا نستطيع مقاومته.
- وما الحل يا شيخنا؟
- أمرنا الله باستعمال عقلنا، وهو هبة منه سبحانه.
- ونِعْمَ بالله، ولكن ما تقترحه نسير وفقه.
- نترك المدينة ونلحق ببقية من نزح، ولا نقدّم أنفسنا صيداً سهلاً.
- وافق الجميع على مقترحه، وفي جنح الليل أغلق كل واحد منّا باب بيته، واخترنا الطريق الذي يخلو من فلولهم، عزمنا على أن نجتاز مناطق الخطر حتى ينبلج الفجر، واستمر سيرنا، كل واحد منا يقتفي أثر صاحبه، غير مبالين من صعوبة ووعورة الطرق.

الخــراب

نقول الخراب، بمعنى الإساءة إلى الوجود، سواء وجود الإنسان، أو وجود الشواهد والعلامات المعمارية التي أسسها لتجميل وتأصيل وجوده.

فالذاكرة تحتفظ بصور ما أسسته وأضافته لوجودها، وبهذا اكتسبت الصدق والأمانة لواقعها، فالمهم في تجاوز الزمرة الباغية في اللعب العشوائي من جهة والمنظم من جهة أُخرى، تلبية لحقدهم في تخريب الأهم وقصد الوصول إلى نتائج تخدم العقل المدبر لكل هذه النوايا ومعرفة تلك الدسائس التي عشنا تحت تواصلها نتيجة خطأ مدبّر صاغه كل حسب مراميه الطائفية والغل الذي يحمله اتجاه غيره.

وربما نسأل انفسنا قبل سؤال غيرنا لأننا ادرى بشعاب خارطة هيمنة فصائل القاعدة وداعش، فقد عرفنا ما يُدبر لنا منذ وجود القاعدة في مدينة نينوى لكن تحذيراتنا واستغاثاتنا ذهبت سدى دون واعز للدفاع عن أرض عراقية؛ عشنا وذقنا الويل بسبب عدم الانسحاب وراء دعوات من الإسلام ديناً ودفاعاً بحجج واهية، فقد جوّزوا الاعتداء على مقدرات الناس ومحاولة محو ما هو رمز كالمساجد ذات البعد التأريخي.

إن ارهاب العدو كان أشد قسوة على مواطني قصبات ونواحي وقرى المدينة الذين وجدوا أنفسهم دون دفاع. فجراء خلو المدينة ممّن يتوجب أن يكون مدافعاً عن أرضه التي هي جزء من الوطن، بسبب تدبير انسحابهم من مواقعهم العسكرية، وترك الفتية يفاجئون بعدم وجود من يأتمرون بأمره؛ لذا فقد نالوا الذل والهوان والموت، كما نلنا الذل والقتل والاعتداء على حرمات أخواتنا وأقاربنا وكل من يجاورونا بالتي هي ذات صلة بديننا ومذهبنا، ولنا حرية إقامة طقوسنا ونشاطاتنا التي لها صلة بالدين والشريعة، فكيف يكون ألآتي ممن لا دين له، لينقض على ما أسسناه

ما الذي حلَّ بنا حتى نكون هكذا بين أنياب ذئاب لا تشبع من النهش في لحم الآخرين؛ لا يخطر أدائهم على بال أحد بما اتصف بالوحشية والقسوة، عشنا كابوس مدمر، اضطررنا جرّاءه إلى الهجرة تاركين ذكرياتنا وما بنيناه بأيدينا طيلة العمر الطويل، وحينما عدنا لم نجد سوى الخراب، لقد احرق وهُدم كل منزل واستبيح كل ما في داخله نهباً وحرقاً وتدميراً وسرقة الغالي والنفيس بما فيها المدارس والمساجد والحسينيات.

كان حقدهم يطال كل شيء، حيث أصيبوا بالعمى الطائفي وانحرفوا عن جادة الصواب، اختلقوا ديناً لهم، وراحوا يفسرون الأشياء وفق نظرتهم المشوشة، لم يسلم منهم شيء فقد غلب عليهم الحقد، ولا تغيب عن الذاكرة ما كان يقوم به داعش وبمرآى أفراد القاعدة، ومن آزرهم، يحدّقون بعيون شامتة أثناء ما يرون نتائج حكم مشرعهم بإصدار أحكام الاعدام ذبحاً، تماماً كما تُنحر الخراف في المناسبات.

لقد أصبحنا قرابين لآلهتهم القاسية والمصنوعة من لهب النار، ينفذون حكمهم الشرعي الجائر بحق الأبرياء، ينحرون الأطفال والشيوخ والنساء ويرمون أجسادهم في الحفر أو النار؛ اتخذوا من البئر مقبرة ملئوها بالجثث وما إن امتلأت قاموا بردمها ومساواة الأرض دون أن يرف لهم جفن.

لقد طالعنا جرائمهم قبل النزوح الذي كان لابد منه، حفاظاً على وجود أطفالنا وشرف نسائنا وكرامة أُمهاتنا وآبائنا، كان النزوح صعباً جداً وعانينا منه الكثير بسبب اختيارنا للطرق الوعرة والبعيد عن أنظارهم، عانينا منه كثيراً، خاصة ما حدث للشيوخ بسبب أمراضهم المزمنة، فالبعض توفي في الطريق، مما اضطر أهله لدفنه في مقابر القرى التي دخلناها واستقبلتنا بحفاوة، لكن قدر هؤلاء الأبرياء أن يموتوا بعيداً عن مدينتهم، ورغبتهم في الدفن في مقابرهم، كما جرى لمن سبقوهم إلى الآخرة.

سلمنا أمرنا لله واستمر سيرنا على الأقدام، متنقلين من قرية إلى أُخرى حذرين من اكتشاف أمرنا فنقتل بشكل جماعي، وندفن في حفرة كأكداس نفايات أو نرمى للوحوش الجائعة على امتداد الأرض.

لقد سمعنا من أهالي القرى أن جماعات سلكت طرقاً محاذية لنينوى مما أوقعهم في أيدي داعش، في الحال ومثلوا بجثثهم دون رحمة.

كنا نلوذ في القرى والقصبات، ونختار طرقاً طويلة من أجل الابتعاد عن طريقهم، أما الذين اختاروا طريقاً يمر من مدينة نينوى كما سمعنا في كل قرية نمر بها، كان مصيرهم الموت أو قتلاً بالرصاص الكثيف ورمي الجثث في البرية.

سلمنا ووصلنا إلى مدن آمنة في الجنوب والوسط، لكن المرارة كانت ترافقنا، ونحن نتذكر بيوتنا وكل ما كان يشكل لنا مدينة آمنة، كنا نؤمن بيقين أن خراب البيوت والشوارع والمساجد يمكن أن يعوض، لكن خراب الإنسان من الصعب استعادته.

حمدنا الله على سلامتنا من أيدي وحوش لا ترتوي إلا بسفك دماء الأبرياء، عشنا بكرامة بين أُخواننا في الدين، كأننا من ضمن عوائلهم لم يشعرونا بغربتنا عن مدننا.

سيكون مدار حديثنا ونحن نعود إلى مدننا الذي لا بد منه، ويكون من ضمن تأريخنا المشرّف، سيقوم الناس بصلاتهم في المساجد، ويستمعوا إلى خطبة الجمعة، وإرشاد إمام الجامع يومياً.

سنقرأ القرآن بعد كل صلاة دون مزاحمة أحد، بل نقيم طقوسنا ومواكبنا التي تذكرنا بمصيبة آل البيت عليهم السلام، التي لم نمر بها، فهي الصورة التي رسمها لنا آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وهم يدافعون عن دينهم، وارث رجالهم،

ويبقى استشهاد إمامنا وصحبه على أرض كربلاء عنواناً لصبرنا، مثلاً نقتدي به ونحن نعاني من شراسة العدو، فليس ثمة فارق بين موقف يزيد وما ارتكبه بنساء وأطفال سيدنا الحسين عليه السلام، وبين ما قام به داعش في سبي الأطفال والشيوخ والنساء، باعوهن بسعر بخس ورخيص.

لقد أعاد التأريخ الجريمة بصورتها المعاصرة التي فاقت سابقتها بتفاصيل يند لها ضمير الإنسانية، فما كان من أهالي هذه المُدن إلا الصبر والعمل بما تقتضيه المواقف.

وفعلاً كان لصبرنا ثمار تمثل في هزيمتهم، بفعل إصرار شباب المدن ومن انظم معهم لمحاربة العدو الذي فرَّأمام اقتحام أوكارهم، فروا كالجرذان التي تندس في جحورها، مستسلمين لقدرهم الذي خططوا له.

فما ازداد أثناء انهزامهم سوى شعور الجميع بطعم النصر وسيادة الموقف الذي دافع عن الدين وشريعة آل بيت الرسول ﷺ الذين كانوا وما زالوا نبراساً لنا في طريق طويل لإعادة ترميم ما هدّمه الأوغاد، وتركيز اهتمامنا ويقضتنا للأيام التالية، فقد ينفذ منه العدو للتخريب وزرع العبوات.

فهو ديدنهم في مواجهة الواقع، فهم يتسللون في حلكة الظلام، ويختارون الظلام كالخفافيش لارتكاب جريمتهم، إنهم ظلاميون بحق، لا يسد شغفهم للموت سوى ارتكاب الجريمة التي لا تحدها سمة الأخلاق.

ما شهدته الأيام العصيبة

أعتقد أن ما مرَّ على مدينة نينوى وأهلها ليس له مثيل في كل حرب سبقتها، خاصة مدينة تلعفر؛ فقد اجتمع على عدائها كل ما هو حقد تأريخي ولا إنساني، سواء من تنظيم القاعدة أو تنظيم داعش، إن الأرضية التي عمل عليها هذان التنظيمان هو الطائفية المقيتة.

فالذي رأيته وعشت مع أهلي وأصدقائي من الصعب وصفه، فأنا لم أكن مواطناً كسائر مَنْ تضرر بهذه الهجمة الشرسة، بل أنا إنسان واعٍ ولي خبرة في المنظومة العسكرية بسبب كوني عسكرياً سابقاً، آثرت الوطن على كل ما يدور من تطرف في الآراء والأفكار التي لم تخدم سوى المتربصين وحاملي حقدهم الذي تداولوه في كل بلد دخلوه ومارسوا أفعالهم بالأهالي، فما وجدوا سوى البعض الذي انظمَّ إليهم لأسباب لا تدل إلا على خلل في عقولهم وغل في قلوبهم وضعف في إيمانهم فراحوا يرددون شعارات ويقومون بأفعال تفوق أفعال الغزاة الهمج والبرابرة، لقد راق لهم هذا السلوك فاستثمروه للقضاء على مَنْ انصب عليهم حقدهم.

فجروا ونهبوا وقتلوا بدم بارد، والجميع يرون ما يدور أمام أنظارهم يومياً؛ لقد وقعنا بين فكي الرحى، فمن جانب الذين سلّموا أُمورهم ومصائرهم بيد التنظيم،

وتخاذل القوات العراقية التي سلم أفرادها مصائرهم بيد الغزاة، فمن ترك مكانه وهرب تاركاً الجنود العزل من قياداتهم، راحوا ضحية الذبح والرمي في مجرى مياه دجلة، كنا لا نعول على من ينصبون السيطرات لحمايتنا، بل نأخذ حذرنا منهم بسبب تخاذلهم وجبنهم المتواصل، لم يمنعوا جماعة أو أفراد يرومون الدخول إلى مناطقنا للتفجير والقتل، بل وقفوا متفرجين لا يرف لهم جفن.

كان ما يجري نراه بأم أعيننا، انتهاك العوائل، وتفجير لسيارات أجبروا الأهالي أنها توزع عليهم الطحين، وفعلاً كانت كذلك يقودها مواطن من أهالي المنطقة، ممّا دفع الأهالي الذين يتضورون جوعاً من التجمع حول السيارة الضخمة، وما حصدوا سوى الموت.

كنا متحمسين للدفاع عن مدينتنا، خاصة بعد أن تركها الأهالي هرباً من زحف زمر داعش لتدميرها، قمنا ببيع كل ما نملك واستعنا بالخيرين وعزمنا على شراء الأسلحة من التجار والسماسرة الذين وجدوا في هذه الحرب نواة تراكم أموالهم.

الخيانة أصبحت سمة طبيعية، فقد اشتبك الحابل بالنابل وبقينا بأعداد قليلة همها الدفاع عن المدينة أو الموت، وفعلاً حققنا الكثير من المواقف التي صدت العدو من التجاوز على ما بقي؛ لكنهم استطاعوا وبفضل عدم حيوية وجدية السيطرات أن يتسلل أعداد منهم ليفجروا بأحزمة ناسفة عدد من المراقد والمساجد ودور العبادة، وقتل رموز المدينة، كان حقدهم لا يوصف.

فقد استجمعوا كل شراسة حيوانات الغابات والبراري ليصبوا حقدهم على مّنْ لا حول لهم، ولا خلاف بينهم سوى في المعتقد الذي لا يخرج عن أصول الدين.

قاومنا وقاومنا ولم نترك المدينة إلا لأسباب خارجة عن واقع الحال، فقد استجمعوا كل قواتهم للفتك بما تبقّى من الأهالي والمقاومين، وبمعونة الخونة والأذلاء.

كانوا يتصورون أنهم بحقدهم هذا سوف يقضون على وجودنا ومعتقدنا، فهم لم يقلبوا صفحات التأريخ ليدركوا كم عانوا اسلافنا من قبلنا لتثبيت أصول الدين، وتأسيس منابر الدعوة للسلام والعيش المطمئن بين من خلقهم الله ليعيشوا مسالمين يحب بعضهم البعض دون النظر إلى الدين، لكن مَنْ ملأت قلوبهم عناصر الشر اعتقدوا أن هؤلاء الدخلاء على مدنهم سوف يحموهم، (وفعلاً كان أن برز خطأ اعتقادهم)، فلم يصمدوا أمام من تطوعوا دفاعاً عن مدنهم.

كانت البسالة تسبقهم وهم يصدون هجمات العدو الذي غدت فلوله مبعثرة، فروا كالجرذان أمام بسالة من تطوعوا في الحشد، فراحوا يدمرون كل ما هو أمامهم ليستردوا كرامتهم المهدورة، وضياع تصوراتهم المريضة التي كانت مبنية على أوهام تأسيس دولة الجور والقتل والفتك بالمسلمين بحجة أفكارهم المريضة.

من مفارقات ما كان يحدث، اني بفضل خبرتي الاستخباراتية، رصدت صبّاغ أحذية متنكراً وهو في الواقع قائد خطير في زمر داعش، كنت أرصده وأتتبع خطواته في المدينة، وبعد أن تأكد لي ما حدست، أُلقي القبض عليه، وعند مفاتحته أنكر وتمسكن، ولكن حينما واجهته بالحقائق اعترف بأفعاله المشينة.

هذا نموذج من نماذج كثيرة سوف ندونها في مخطوطة المدينة التي عانت ما عانت لكي تكون صامدة بوجه الدخلاء وصانعي الحروب؛ لم يكن منا سوى الصبر والتفكير في الطريقة التي تضمن لنا السلامة، نحن وأفراد أُسرنا من هجماتهم وانتهاكاتهم لحياتنا من خلال التفجير وحرق البيوت وهدمها، فلم تسلم من أفعالهم المساجد وشيوخها، فقد قُتل أكثر من إمام مسجد، ومُنعوا من الصلاة في المساجد وسماع خطب الإمام، هذه الانتهاكات استمرت بشكل مكثف، حيث حرمت

الناس من الخروج من بيوتهم، وقسم منهم هجروا مناطقهم بعد تهديدهم بالقتل إن لم ينظموا إلى صفوف هذه الزمر القذرة.

وفعلاً حينما رفضوا، سارعوا لقتلهم أو اختطاف أبنائهم والتمثيل بأجسادهم حينما رفضوا بشجاعةٍ الانصياع لهم؛ هكذا كان الشباب المعمرة قلوبهم بالإيمان، وقفوا وقفة المبادئ حين تواجه الباطل، ونحن مؤمنون بأنهم منقادون لمن نظّم صفوفهم ليؤدوا دورهم مثل ممثلين في السينما، رسموا لهم الأدوار، بعد الحفر في التاريخ، مختارين أسوأ الأشكال والادعاءات ليضيفوها على أشكالهم وهيئاتهم المقززة، جمعوهم ليشكلوا منهم جماعات توزعوا على بقاع الأرض، مختارين الأماكن الأكثر حساسية، فراحوا يبثون الرعب بين الناس، ويقتطعون المدن والسيطرة عليها، متوهمين بأنهم يقيمون صرح الدولة الإسلامية المرتقبة، لكننا كنا مؤمنين أن دولتهم واهية ولا يُكتب لها إلا الانهيار، وفعلا إنهارت بفضل بسالة الشباب والشيوخ المتطوعين لنصرة الحق.

فكانت صفوفهم هاربة أمام إيمان الجميع وصبرهم على الظلم والافتراء، طاردوهم في كل الزوايا، وأخرجوهم من الجحور والأنفاق وكسروا شوكتهم التي تنمروا بها أمام الجمع الخيّر من الشيوخ وأئمة المساجد، لاحقوهم حتى إلى الأماكن البعيدة، حتى لاذت فلولهم بالكهوف البعيدة، فلا تأويهم سوى الأمكنة التي تليق بهم.

قصف متواصل

على الرغم من بُعد مدينة تلعفر عن مركز مدينة الموصل، إلا أنها تعرضت لهجمات كثيرة بقصد إبادة أهلها عن بكرة أبيهم.

والسؤال كيف عرف داعش بما تشكله المدينة من بنية مذهبية تخالف شريعتهم المفترية؟ والجواب: عرفوا من ضعاف النفوس ومن أذلوا أنفسهم لمن لا دين لهم.

راحت فلول داعش بعد احتلال نينوى تقصف المدينة بوابل قنابلهم المميتة والتي غنموها من الجيش بعد انسحابه من نينوى وملحقاتها.

فلم ننسَ ذلك اليوم الذي فُجرت فيه مراقد الأولياء بالعبوات الناسفة والقنابل اليدوية، فقد دمروها بالكامل حتى ارتوت نفوسهم المريضة، كان القصف شديد، ومنظم وفق احداثيات مضبوطة، لتدمير بيوت الاهالي كلها.

لقد أشعلوا الأرض والسماء فلاذ بعض الناس بالمساجد بعد دمار بيوتهم، ولم يسلموا من قصفهم ليل نهار، كان منظر انتقال الناس من مكان إلى آخر يثير الحزن.

فمن أين استمد هؤلاء قسوتهم، إن لم يكن منظمهم بارعاً في صنع قناع الدين لهم، وعلى مقاساتهم، لقد عرف مَنْ لهم خبرة بالقتال والحروب، بأن هذه الكثافة في

القصف يعقبها هجوم شرس، لذا تدارسوا أمر من بقي حياً في المدينة، خاصة النساء والأطفال، مما اضطرهم للنزوح إلى مدينة سنجار.

وفعلاً ما إن تمَّ رحيلهم حتى جاءت فلولهم تجتاح المدينة بالسيارات المحملة بالرجال وكأنهم داخلون لخوض معركة حاسمة مع مسلحين، لكنّ الخيبة واجهتهم، ممّا زاد من غضبهم وحقدهم، وراحوا يمطرون البيوت بالرصاص كما لو أنهم ضمن كرنفال احتفالي واسع، يرمون بالرمانات اليدوية على البيوت تاركة بعد انفجارها ناراً ودخاناً أسود كقلوبهم.

كان أهالي سنجار واللائذون من أهالي تلعفر يعتصرهم الألم وهم يسمعون أصوات القصف والحمم والدخان المتصاعد من كل جوانب المدينة، وكل واحد منهم يتوقع أنه يرى بيته يشتعل بنيران قنابلهم، لقد أشبعوا وأعوانهم ضعف نفوسهم بنيران الحقد بقصفهم المسعور، مقابل صبر أهل المدينة على ما واجهوه منتظرين أن يخف ويهدأ القصف، لكي يعود البعض لتفقد البيوت، وفعلاً ذهبوا فلم يجدوا سوى الدمار وآثار العبث العشوائي في الشوارع والأزقة.

لقد خرموا جدران البيوت بالرصاص، فأصبح كالوشم، ونتيجة لهذه المشاهد قرر أهالي تلعفر وشيوخها بأن السكوت عن هذا يُعد مساهمة وقبولاً بما جرى لهم، وكانت الآراء منصبة على امتلاك السلاح والمقاومة بعد إبعاد النساء والأطفال والشيوخ غير القادرين على حمل السلاح، فقد طلبوا منهم النزوح إلى لمناطق الآمنة، والتفكير في كيفية حيازة السلاح بمساعدة رجال مدينة سنجار الذين وقفوا لهم برحابة صدر وتبنوا نزوح الأُسر ومصاحبتهم حتى وصولهم إلى مدن الوسط والجنوب.

وما هي إلا مدة قصيرة حتى حاز كل منهم على قطعة سلاح، ممّا أتاح لهم التسلل

إلى المدينة تحت جُنح الظلام والاستقرار في ما تبقى من جوامع المدينة أو بيوتها.

عادت الحياة إلى المدينة ولكن بهدوء دون إثارة فلول داعش والمرتزقة ومعرفتهم بما قرروا وصمدوا بوجودهم الذي ينتظر الإشارة والأيدي على الزناد ومراقبة مداخل المدينة وكانوا ينتظرون ساعة تحين فيها المواجهة، يترقبون دخول أيٍّ منهم إلى المدينة خاصة طمعهم في الغنائم، لأنهم تأكدوا من خلو البيوت من سكانها، هرب الجميع بأنفسهم وتركوا أموالهم وحليهم، وما عزَّ من الأثاث، وكان لزاماً عليهم العودة ثانية ليقوموا بهذا الدور القذر.

فالجميع حافظوا على ترقبهم ومراقبة الطريق، يتخذون من زوايا الأزقة والشوارع أمكنة يستطيعون من خلالها السيطرة على من يدخل إلى المدينة ليلاً، وطال الانتظار، ولكن لم ينفد الصبر، بل بقي كل واحد من الشباب وكبار السن على مواقفهم الصامدة، فهي فرصتهم التي يقدمون من خلالها لمدينتهم وتأريخها الأصيل كل ما تستحقه من وفاء.

وكذلك فهم عراقيون ومن حق العراقي أن يُدافع عن بلده ضد الأجنبي مهما كانت هويته، وهاهم يدافعون ضد من ليس بمحتلٍ فحسب، بل مشوه للدين والشريعة، فمحاربتهم واجب شرعي لا يحتاج إلى اجتهاد، هؤلاء دعاة بدع وتفكير باطل، يتوجب إيقافهم عند حدهم، وطردهم من المدن التي دنّسوا أرضها بأقدامهم القذرة.

طال النهار وأعقبه الليل ولم تظهر فلولهم، فالأيام شاهدة لا يداخله التعب والضجر من الانتظار، فداعش يُخطط ويستعين بعملائه، ويفكر بالساعة التي يخطط بها للهجوم، ليس للحرب مع رجال، فقد غابت عنه هذه الصورة، بسبب الغطرسة التي يمتاز بها، بل يؤدون دور تنظيف المدينة والنيل من الجدران التي ترعبهم، ومن

ثمَّ التسلل إلى البيوت واقتحام حرماتها وما يتيسر لهم نهبه، فهم متأكدون من مغادرة كل الرجال، بينما الرجال والشباب ينتظرون سار الزمن وانصرمت الساعات والأيام، حتى سمع البعض هدير عجلات السيارات، فأشار أحدهم لَمَنْ يبتعد عنه أن يتحضر الجميع ولا يتوقف رصاصهم، لحظة توسطهم ساحة المدينة، وخروجهم بأسلحتهم مطمئنين، لحظتها يستجيب الجميع ما إن يسمع الرصاصة الأُولى التي ستودي بأحدهم.

وفعلاً ترقب الرجال والشباب حتى استقرت السيارات وسط ساحة المدينة، نزل منها رجال لا يُستهان بأعدادهم، يضعون بنادقهم معلقة على أكتافهم، انطلقت رصاصة من أحد الرجال أودت بحياة أحدهم وهو يتلوى على الأرض مثيراً الرعب في صفوف الباقين، ولم يستطع الباقون إزالت بنادقهم عن أكتافه، إلا وواجهوهم بوابل من الرصاص، وحينما تأكد الجميع سقوط فلولهم موتى، خرجوا من كمائنهم، وعلى عجالة استقلوا السيارات، وانطلقوا باتجاه سنجار ترفرف قلوبهم رايات قبل رايات النصر التي يفتخرون بها، استقبلهم الجميع مهللين ومرحبين، ومفتخرين بهذا النصر.

قام بعضهم بإبعاد السيارات عن مرمى البصر، وقرروا على عجالة النزوح إلى أماكن أُخرى توقعاً شراً من ردة الفعل حينما تصل الأخبار بهزيمة رجالهم؛ وفعلاً نزحوا الى قرى بعيدة مشياً على الأقدام تاركين أمر السيارات على عاتق أهالي سنجار لإبعادها عن المدينة حتى وسط مدينة تلعفر.

كان موقف كهذا من بين مواقف قدمها رجال وشباب المدن، وأكدوا عزمهم هذا ساعة الاستجابة للتطوع لفصائل الحشد الشعبي، وهذه البسالة تُسجل لكل مَنْ همّه الحفاظ على دينه من التشويه، والحفاظ على مدنهم الآمنة.

بربرية وتوحش

أدرك كل من عاش في المدن المتاخمة لمدينة نينوى ورأى بأمَّ عينه كيف جرت الأُمور والتحولات، سواء العسكرية أم الاجتماعية، حيث دبرت فلول داعش مخططاً كبيراً، أسست له الجماعات المتطرفة، وهيأت المناخ الملائم لنمو وتطور حركة ليست على بال أحد، لم يعرف أحد الطائفية إلا في زمن تخاذل بعض القوات الحكومية وفصائل الجيش، وهم يتركون أسلحتهم الثقيلة والخفيفة غنيمة للتنظيمات المتطرفة، أحرقوا طائرة في مطار تلعفر، واستخدموا سيارات (الهمر) التابعة للجيش.

لم تسلم عائلة وهي تهاجر إلى مدن الجنوب والوسط، إلا تعرضوا إليها بعد ان يحصلوا على معلومات تؤكد نزوحهم، يقتلوهم على مرآى من افراد سيطرات الجيش، ويرمون جثثهم على قارعة الطريق حتى تتعفن وتأكلها الكلاب.

لقد واجه أبناء المدن خيانات متعددة، مما دفعهم لاتخاذ الاجراءات الازمة للدفاع عن أنفسهم بسلاح خفيف ولا يمتلكون غيره، يخفونه في النهار ويهيئونه في الليل لمواجهة ما قد يتعرضون إليه من هجوم مباغت، فقد فعلوا ما وزعوه من أوراق لصقوها على واجهات البيوت، مهددين من خلالها بالموت من لَمن ينفذ أمر

النزوح عن المدينة.

وفعلاً قاموا بأكثر من جريمة قتل ومنها حرق البيت العائد للملا محمود البرزنجي، وجامع السيد (قدو) وهو جامع تأريخي وكان أهالي تلعفر يتجمعون في داخله في أوقات الصلاة، والمناسبات الدينية والأعياد، يجتمع داخله المسلمون من كل الطوائف.

ولكنهم وهذا مؤسف جداً تحوّل هذا المسجد إلى مكان لتربية الحيوانات، حيث امتلأ بالقاذورات، لم يراعوا حرمة المسجد مهما كانت تبعيته الطائفية، فهو من بيوت الله، وإن عملهم يكشف عن حقد دفين لا أساس له في شائع الدين، بل دلالته الانتقام من كل ما هو صلاح للإنسان، ولعل أهل المدن خاصة تلعفر كانوا أكثر عناداً في تلقين العدو دروساً بليغة، لاسيّما حينما أصروا على حيازة السلاح مهما كان الثمن، والوقوف بجدارة قتالية أمام هجماتهم المباغتة، خاصة في حُلْكة الليل، فدليلهم اقتناص اللحظات التي تناسبهم، فالظلام هو الحيّز الذي يحتويهم ويفعّل نشاطهم.

فربما وُجِدَ البعض يتجولون في أسواق وأزقة المدينة، يستطلعون الأخبار وقوة الناس والرجال خاصة، من أجل هذا عرفهم الجميع بعد اعتقال أحدهم، فكان يأتي إلى المدينة، ورآه الكثيرون، وعرفوه ما إن رأوه يتصيد وينظر بشكل غير طبيعي في وجوه الناس.

لذا كان حذرهم يتضاعف من أي وجه غريب يرونه يتجول بحجة التسوق، يراقبونه ويعرفون نواياه، لذا كان العمل يجري بحذر دون معرفة هؤلاء الرُسل الشيطانية لمعرفة شباب المدينة لهم وتشخيصهم، كل ما يجري في الخفاء، وكأن الحياة

تجري بشكل طبيعي.

وكانت هجماتهم المتقطعة تبوء بالفشل، بسبب تصدي بعض الشباب ما إن يروهم يحاولون في جنح الظلام التسلل إلى المدينة، يهزموهم ويصيبون بعضهم ليكونوا عبرة لغيرهم، تكررت المشاهد والفشل الذي يصيب أفرادهم، ممّا جعلهم يضاعفون صفوفهم ويزيدون من عدد المهاجمين، إنهم ينوون القضاء على كل ما يواجههم، تخريباً وتدميراً وحرقاً، يغيرون بأوقات متفاوتة، ويباغتون الأهالي أثناء النهار، سواء أمام بيوتهم أو في الأسواق، ولم يسلم منهم حتى التلاميذ وهم يرومون الوصول إلى مدارسهم، بل يتصدون لهم لزرع الرعب في نفوسهم، ممّا يضطرهم إلى الهرب منهم والعودة إلى البيوت.

كل هذه الأفعال تستهدف إجبار الأهالي للنزوح، فأهالي المدن لم ينزحوا خوفاً منهم، بل لخلاص أُسرهم وأطفالهم من قدر الموت، لذا كانت الهجرة إلى أماكن بعيدة عن وجود فلولهم أمر مفروغ منه، نزحوا إلى كردستان، وإلى مدن الوسط والجنوب، ريثما تهدأ الأمور ويُزاح الكابوس الذي خيّم على هذه المدن التي لم ترتكب جرماً سوى اتباع أصول الدين وأداء شعائره.

كان الأمل يحدوهم إلى الصبر مهما طال أمده، وفعلاً تحقق المراد بعد أن استجاب كل ذي غيرة على وطنه إلى التطوع في صفوف الحشد الشعبي، حيث كان النصر يلوح بالأُفق كرايات لا تدل إلا على النصر الأكيد على الفلول الدخيلة التي مرغت أياديهم بدماء الأبرياء.

مرويـات

إذا ما أردت أن تقضي على مجتمع قبل القوة والغزو، فقم بإشاعة الفرقة والتباعد بين أفراده، ثم زرع مثل هذا الخلل الاجتماعي.

وفعلاً نجحت زمر داعش في استنهاض هذا الحس الطائفي بين أبناء المدينة الواحدة، فقد هيئت القاعدة الأرضية المناسبة لزرع الفتنة وأصبح الأخ لا يأتمن أخاه، استشرت الفتنة بين الناس، وفتحوا عيون داعش على مدننا الآمنة بحجة الخروج عن عقيدة الإسلام.

فما كان إلا التركيز على وجودنا، فأصبحنا لا نفرق بين الليل والنهار، فكلاهما عاج بالقصف والهجوم المفاجئ، والقتل والذبح بصورة علنية أمام أنظار الأطفال لزراعة الرعب في نفوسهم، وسبي النساء وذاقوا الرجال طعم السم، بالتمثيل بأجسادهم وعلى مرأى من بعض العناصر التي سلّمت وجودها بين أيديهم، فأصبحوا العين التي تكشف لهم كل شيء يفكرون به، ويروون عطشهم للقتل.

لم تشهد مدينة تلعفر السكينة، ومثلها مدينة سنجار والقرى والقصبات الأُخرى، فقد دمروا كل ما بوسعهم تدميره، وطالت أيدهم أعز ما يملك الإنسان، حاولنا بواسطة مَنْ نعرفهم جيداً ممّن إنظّم إلى صفوفهم ولم ينفع أي توسل بالتخفيف من الضغط على المدينة ولكن لم ينفع توسلنا، بل زاد حقدهم وأفعالهم المشينة، لأنهم خططوا لتدمير كل ما يتعلق بنا، وما زلنا نذكر كيف كان الحوار بين إمام المسجد وأحدهم الذي حضر مع عصابته.

قال لهم إمام الجامع:

- إرحموا الأطفال والنساء يا أُخوتي.
- قال أحدهم وبغضب:
- كيف نرحمهم وأنتم لا ترحموهم؟
- سأل الإمام:
- كيف لم نرحمهم وضح لي هذا ؟
- أجاب وبعيون يتطاير منها الشرر:
- أنت بنفسك تلقنهم في الأذان والصلاة.
- أُلقنهم ماذا؟ أُوضح لهم للانتباه لكل من يعتدي على الإسلام، إسلام محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).
- وهم ما جاءوا إلا لنصرة الإسلام.

- وها نحن على نفس الدين، فكيف تحاربونا ؟.
- أنتم لستم من نفس الدين.
- كيف ؟
- أنتم خارجون عن الدين ببدعكم وهجومكم على مَنْ يحاول بناء دولة الإسلام، دولة الحق.
- نحن نهجم ونكشف الباطل. فمن تمسك بالإسلام نؤاخيه، ومن خرج فله منا الارشاد.
- أصبحوا خارجين عن الدين وأنتم من يحافظ عليه؟
- من يكون هؤلاء حتى تدافع عنهم؟
- أُخوتنا بالدين وتركوا مدنهم وقاراتهم من أجل هدف سامي.
- ومن أي بلاد إسلامية أتوا متبرعين، ومن أعطاهم السلاح والمال؟
- جاءوا مندفعين بحب الدين والعقيدة.
- كلا جمعوهم كمرتزقة من الشوارع والسجون من أجل تشويه الدين بالشعارات الكاذبة.
- هذا رأيك ؟
- ورأي الجميع، ومن له غيرة على دينه.

- رأيك متطرف وسيجلب لك الويلات.
- ألله هو الحافظ.
- سنرى.

ومن ساعتها عرف كل من حضر الموقف أنهم يبيتون للإمام الشر، واقترحنا عليه مغادرة المدينة، فرفض قائلاً:

- الله هو الذي يكتب قدرنا.

وفعلاً دخل على الجامع في حُلْكة الليل جَمعٌ منهم فنحروا الإمام ومن كان معه، ثم رموا جثته في الشارع مقابل المسجد. مما أغاظ الجميع وشدد من غضبهم وتوعدوا بأن يردوا عليهم أضعاف ما عملوا. ومن يومها لم نعرف السكينة، فقد بدأوا الإغارة على المدينة في منتصف الليل، مطلقين النار وهم يستقلون سياراتهم.

يدورون في الشوارع، ويرمون الرصاص على أبواب البيوت، ممّا يُرعب الأطفال والنساء، فرحنا نفكر بما يضمن لأسرنا السلامة، فأخذنا نجمع ما تيسر من الحاجيات، وما سهل حمله، واتجهنا إلى مدينة سنجار ومن ثم إلى القرى البعيد، وعيوننا مزروعة على مشهد مدينتنا الفارغة من الرجال، مؤمنين بأن الله عزَّ وجل لن يتركنا في محنة كهذه.

العـودة

لم تكن العودة إلى مدينة تلعفر سهلة، خاصة المشاعر التي داهمتني وأنا أجد نفسي وحيداً دون سند أول الأمر، درت في الشوارع واستوقفتني البيوت الفارغة من أهلها، كنت أرمي من وجودي الفردي عبرة للجميع، التي تساعدهم على العودة، بعد أن أوصلت خبر خلو المدينة من زمر داعش، بفضل بسالة الحشد الشعبي، لم أدخل إلى أي بيت، بل وضعت كرسي في الشارع العام، حيث يأتي من يعود ويراني أنا المعروف بين أهل المدينة والحائز على احترامهم لعائلتنا.

وفعلاً أفلحت في هذه المبادرة التي حققت لي صورة العائدين جماعات جماعات، وعوائل بكاملها، إذ بدت الحياة تدب في المدينة، والفرح يطغي على الوجوه.

بثت الحياة في المدينة، بعد فتح دورهم، وأنا أجلس في عرض الشارع ما قام به أهالي المدينة يوم قامت ثورة العشرين، حيث هب الجميع للتطوع، وتكدسوا بأسلحتهم أمام القلعة وأبدوا استعدادهم لطرد المحتل، وحفظ كرامة المدينة، هجموا على القلعة وقتلوا من قتلوا من أفراد الاحتلال الأجنبي، ومنهم الحاكم العسكري الذي أثار حفيظة المحتل فضاعف ضغطه على أهل المدينة، كان الشيخ (سليمان آغا)

يحث الرجال على الصمود، خسرنا خلال المعركة الشيخ (صالح) الذي تميّز بروحه العراقية ووطنيته العالية.

إن حادث ثورة العشرين دليل على حبَّ أهل تلعفر لشعبهم وأرضهم، الذي قوبل بالنكران من قبل العملاء الذين ساروا على خطى العدو، وراحوا ينفذون ما يوجهه أفراد داعش والقاعدة بذبح الناس، هذه الجرائم لا يمكن نسيانها، خاصة ما قام به أفراد عصابة داعش بسيارة الإسعاف التي كانت تنقل طفلاً مصاباً بطلق ناري، إذ أوقفوا السيارة وأخرجوا الطفل وذبحوه أمام مرأى الجميع، وحين سمع والده هب مفزوعاً إلى الجثة التي تركوها في الشارع، حاول حمل طفله للدفن، ولكن القدر أراد له الالتحاق بولده، حيث انفجرت الجثة البريئة بسبب اللغم المزروع داخل جسدها، وراح ضحية الحادث الأب والابن وجمع ممّن دفعهم الفضول لمشاهدة مشهد كهذا، لم يثنِ العصابات عن ارتكاب جرائمها، ولم يثننا عن أداء فعالياتنا اليومية، ومنها الصلاة جماعة، وسماع الخطبة التي حثت الناس على التماسك وحفظ الدين وحب آل بيت الرسول ﷺ، ويبدو أن أحد المندسين كان ضمن المصلين، فحمل ذخيرته إلى العدو.

وقد أدركنا هذا بسهولة من خلال دخول بعض المسلحين إلى المدينة مستعرضين بسياراتهم، متجولين أمام الدكاكين والمنازل، كانوا يضعون علامات على أبواب البيوت، عرفناها بالتكرار، فقمنا بنقل سكنتها إلى بيوت أُخرى. وكذلك إبعاد إمام الجامع إلى الخلف، وسد الفرصة أمامهم لارتكاب جريمة أُخرى بحق أئمتنا وفي المساء حضرت سياراتهم وقامت بتفجير البيوت، ودخلوا إلى المسجد لقتل الإمام فلم يعثروا عليه، فجُنَّ جنونهم، وراحوا يصوبون الرصاص بشكل عشوائي كما لو أنهم يؤدون دوراً سينمائيا.

داروا وداروا، وانفعلوا غاضبين تبدو على وجههم علامات حيوانية، واستغرق تجوالهم الليل كله حتى انبلاج الفجر ممّا دفعهم إلى الإنسحاب إلى خارج المدينة بموكب طويل ومثير، كأنهم دخلوا معركة مع عدو.

وكانوا يلبون مرضهم الطائفي ونقمتهم من كل مَنْ اختلف معهم بالمعتقد، تواروا ليثبتوا للعدو بسالتهم وقوتهم الفارغة، هذه القوة لا يمتلكها سوى الجبناء الذين يخونون أبناء جلدتهم، لم يكن هذا بجديد، ونعني الخيانة، فالذي عمّر عقله وقلبه بما حدث في التاريخ سيجد مثل هذه الأفعال طبيعية كردة فعل لكل ما هو حق، كما ارتكب يزيد ابن معاوية بحق آل البيت عليهم السلام، بقتل الإمام الحسين عليه السلام وصحبه، ثم سبي عياله، محملهم كل تعب الصحراء من العراق حتى وصولهم إلى الشام، وجرى ما جرى، والنتيجة انتصار المسلمين ورمي يزيد وأمثاله في مزبلة التأريخ.

سوف لا ننسى ما واجهت مدننا لمثل هذه الهجمات المريرة التي خسرنا خلالها الكثير، خاصة قتل الأعزاء من أئمة المساجد والرموز ذات الهيبة الدينية.

صبرنا على ضيم قاتل، فلم نرى غير هذا الطريق لمواجهتهم، فحين ما يأتون إلى المدينة، ويحاولن استفزازنا، نقف أمامهم بتحدٍ، ونذكّرهم بما كنّا عليه قبل حضور العصابات التي لا همَّ لها سوى القتل.

ونسألهم: كيف تغيرتم بين عشية وضحاها؟ فيجيبون: نحن لم نتغير، بل أنتم مَنْ بقى على تحجره.

ونكرر السؤال: هل اعتدينا عليكم يوماً ما لم تدخلوا إلى المدينة وندخل نينوى من أجل قضاء حاجاتنا.

كنا نتاجر معكم، وتتاجرون مع أسواقنا، فما الذي تغيّر في الأمر؟ فيعترضون، هذا ما كان في الماضي، ونحن نعيش ظروفاً مختلفة، ومن حقّنا الدفاع عن ديننا، ونسأل: أ بالقتل والذبح تحققون هذا، أم بالموعظة الحسنة؟ يقولون: لا تنفع معكم الموعظة، فأنتم باقون على دينكم الذي بني على الخرافة فيزداد غضبنا على هذا الافتراء والكذب، لنعترض: وأي دين جديد جاء به هؤلاء المرتزقة؟ فيطول الحوار بيننا، لكنه لا يُسفر إلا عن خسائر جديدة في الأرواح.

بدأوا يختطفون الشباب من الشوارع، ويغيبونهم دون معرفة أماكنهم، زاد كذبهم، ولم ينفع معهم كلام الموعظة، ولا تذكيرهم بأصول الدين، وبأنهم يفقدون دينهم إن ساروا خلف هؤلاء، مؤكدين على عودتهم إلى سابق وعيهم، وحبهم المتبادل بين أهالي المدن.

لقد تعايش أهالي مدننا دون اعتبار الدين وطبيعته حاجز لتفرقتنا، وهذا ما علّمنا به ديننا وعليه يسيرُ رموزنا كإمامنا الحسين وأخيه العباس عليهما السلام الذين قدموا هم وصحبهم التضحيات.

وجادوا بأنفسهم راحوا شهداء إلى عليين، كيف تنكرون ما سطره التاريخ من عبر وأحداث، وتذهبون كالكلاب مع هؤلاء المرتزقة والذين لا دين لهم، استيقظوا من سباتكم، وانظروا إلى أفعالكم، ستعرفون مبلغ الخطأ الذي تقترفون.

وكانوا يصغون وينظرون بغضب، فما كانت ردود أفعالهم سوى رفع أسلحتهم إلى السماء والرمي العشوائي، تهديداً لنا وإخافتنا، والعمل على تحقيق تراجعنا، وحين يجدون على محيانا الإصرار يستقلون سياراتهم ويولون الأدبار.

ليس هذا نهاية المشهد الذي كنا نعيشه، بل هو جزء من مأساة طال أمدها، ونحن بانتظار رحمة الله التي سوف تُوقعهم في شرَ ما يفعلون.

كان أملنا بصبر رجالنا، وحكمة شيوخنا، ويقظة شبابنا الذين تربوا على الدين الصحيح، فلا يثنيهم أو يثنينا عن العزم في مقاومتهم ولو بالكلمة الطيبة، وهي أقوى الإيمان.

كان الفرج قد باغتنا ونحن نسمع ما ورد بشأن التطوع في الحشد، فرحنا ننتظر، حتى تحقق لنا الفوز بمثل هذا الموقف الذي فتح لنا الأبواب.

تسلحنا وحاربنا، وتركنا حسنة ما بعدها حسنة، فمن بقي على قيد الحياة تفرغ لإعادة بناء المدينة، ومن استشهد فقد فاز بالجنة.

دُعاة ومفترون

ليس أبلغ وأمّر كما هي الدعوة الباطلة التي يرفض الدعاة خطأ الآخر وصحة المُدعي، لذا فالجميع وقع تحت هذه الدعوة الباطلة والقدر الذي لا يرحم، فالدعاة التابعين لتنظيم القاعدة، والدواعش الذين جاءوا بدين جديد لا رحمة في قوانينه وأعرافه.

كان تنظيم القاعدة يعمل في الخفاء وفي غفلة متعمدة من الحكومة المحلية، وبعد أن تمكنوا والتحق بهم الدواعش، قويت صفوفهم وظهروا إلى العلن وراحوا يكيلون التهم جزافاً وبدوافع الحقد والتشدد الطائفي دون أن يفهموا ما معنى الدين وما هي رسالته.

وقد تعرض البعض للسؤال والاعتقال بحجة أو دون حجة، معتمدين البعد الطائفي، والحقيقة هو التشدد والتمرغ بالإجرام.

فقد وقف البعض بقوة ورفض تأييد الدواعش في ما ادعوا، لذا كيلت لهم التهم، وتعرضوا لقطع الرؤوس ورمي الجثث في (بئر علو) حتى امتلأ بالجثث، مما اضطرهم لردمه ودفنه كمقبرة جماعية.

لم يكن لأهالي تلعفر وسنجار حكومة يستنجدون بها، فقد أسفرت عن تأييدها لهذا التنظيم البشع، أو تخاذلت أمامه، فبدت مكتوفة الأيدي، لا قرار لها فقط النظر وممارسة السلطة دون إرادة، لما يدور في المدينة من خرق للقوانين والأعراف الاجتماعية والدينية، فالكثير من أهالي نينوى كانوا متذمرين، ولكن لا حول ولا قوة لهم، فكيف يتصرفون أمام طغمة مدججة بالسلاح والحقد والوحشية.

كانوا وهم يتجولون في الشوارع بوجوه كالحة، وهيئات وسخة مجللة رؤوسهم ووجوههم بالشعر العفن، رائدهم الانتقام ممّن افترضوا أنهم كفار وأعداء.

وكان أهالي هذه المدن يصمدون لفترة قد لا تطول أمام جرائم هذه الزمر بسبب وفرة أسلحتهم كماً ونوعاً.

كان أهالي هذه المدن أول من انظّم إلى جماعة الدفاع عن المدن، لكنهم أخلوا بهذا الاتفاق، وبدأوا ينتقمون جهاراً من الذين انظم إليهم، وراحت الملاحقات تزداد، وتُطال جريمتهم كل مواطن، سواء كان داخل داره أم في محل عمله، طالت جريمتهم حتى الأطفال والنساء والأُسر بالجملة دون وازع ورادع لجريمتهم،إنهم جماعة الردة في الإسلام التي شهد لها التأريخ، تاركاً جرائم لا تُحصى ولا تُعد.

قال أحدهم وهو مَنْ كان معتقلاً عند الدواعش، وبعد أن أطلق سراحه:

– لقد شاهدت ما لم يشاهده أحد حتى في الخيال، كانوا يستعملون أساليب تحقيق وتعذيب تصل حدَّ الموت والأساليب غير الشريفة.

لذا فأمر قراءة سورة الفاتحة أمر لابد منه، فالموت متحقق ما زال المرء تحت سطوتهم.

وقال: وروي الكثير الذي أرعب الجميع وزاد من غضبهم، معتبرين أن هؤلاء غضب سقط ككتلة ضخمة على رؤوس الناس، في الوقت الذي يؤكد عدم ارتكاب أي خطأ بحق هؤلاء، يبرر هجومهم هكذا دون رحمة.

لقد شهد أحد المواطنين ممّن انظم إلى جمعهم، قد انقذه الشباب من موت محقق، حيث رأى بأم عينيه كيف وجد عدد من الرجال والنساء يُحالون إلى محكمة شرعية كما ادعوا وهي مهزلة يمارسون خلالها ما يروق لهم من اجتهاد، فيكيلون التُهم جزافاً، فهم القضاة والمنفذين والشهود، إنهم يؤدون مسرحية معروفة نهاية فصلها الأخير وهو الموت، وتم قطع رؤوسهم ورميها في بئر (عنتر علو)، هذا البئر الذي شاهده الجميع وهو يستقبل الجثث حتى امتلأ، بعد أن كان متدفقاً بالمياه، لم يتركوا مكانا إلا وزرعوا في زواياها جريمة مقرفة، يتلذذون بصورة الموت حد الانتقام والحقد غير المبرر، كانت قلوب الناس تغلي بالغضب، ولم يُسفر عن غضبهم سوى الصبر ثم جمع السلاح لدرء الخطر حين يقترب أجله.

كانت رغبتهم في اقتناء السلاح ملحة، باعوا كل ما يمتلكون، بعد أن رحّلوا نساءهم وأطفالهم خوف انتقام أو أسرهن من قبل داعش، فهم وكما وردت الأخبار يختطفون النساء، ويزوجوهن زواجاً قسراً أو يمارسون معهن الزنا.

لم نرَ في كل تأريخ المدينة مثل هذا الجحيم والغضب الذي انصّب على رؤوسنا فجأة، لكننا صبرنا كثيراً ونال قسم منا الشهادة، حتى تمَّ تحرير مدينتنا والمدن الأُخرى من تلك العصابات، كنا نرى بأُم أعيننا أبناءنا ورجالنا وهم يقاومون المحتل بعد أن

انظموا إلى فصائل الحشد الشعبي.

فما زاد إلا شرف لوجودنا ما بعده شرف، لقد اندفع الشيوخ قبل الشباب بالانضمام إلى الحشد، وقدموا التضحيات الكبيرة.

وكانت همتهم تنطلق من إيمانهم بدينهم، ومواقف أئمتهم عبر التأريخ، لم تفتر عزيمتهم، ولم يتراجعوا أمام كثافة قواتهم وأسلحتهم، لكن الإصرار على هزيمة هؤلاء، وتذكيرهم بما قاموا به من عبث في مقدرات الناس، فراحوا يؤكدون بأفعالهم اتجاه قوة المتطوعين.

فما كان منهم سوى الهرب والاحتماء بجمع النساء الأسيرات، وقسم منهم ترك عائلته وهرب إلى خارج المدينة، ولكن لم يسلم الكثيرين منهم، بل نالهم سلاح الشباب والمتربصين بهم، ورصد حركة انسحابهم من المدينة بشكل يتسم بالخوف والجبن؛ راحت صفوف الشباب والشيوخ أكثر يقظة لما يخططون للهرب، فهم جبناء مثلما كانوا يفعلون بأهالي نينوى والمدن والقرى الأُخرى.

لقد حقق الأهالي ما كانوا ينتظرونه، سواء كان بالتطوع وتوفر السلاح بسهولة، بعد أن كان صعباً، كذلك مشاهدتهم لفلولهم، وهي تقع تحت كابوس الذل والجبن.

فقد كانوا متفردين بمن لا سلاح لهم، ولا جيش يحميهم من الدخيل لكن الأيام شهدت غير هذا.

فقد حقق الجميع أحلام كل من آمن بالدين وبما كان يتحدث حوله شيوخ المساجد، مذكرين إياهم بالتأريخ المليء بالشجاعة والتضحية، ضاربين الأمثلة بمواقف أئمتهم سواء ما قام به سيدنا الحسين عليه السلام وأصحابه، حيث ضربوا أروع المثل في الفداء والتضحية في سبيل دينهم. فتاريخنا فيه من العِبَر الكثيرة التي تشخص علامات لتقديم ما بقدرتنا من أجل الدفاع عن ديننا ومدننا.

هذا هو تأريخ مدننا، سواء أثناء الاحتلال الجائر، أو بعد التحرير، حيث مشهد الجميع وهم يقومون بإعادة ما خربه العدو، خاصة على المساجد، التي هي أمكنة اجتماعنا مع بعض، والإصغاء إلى ما يرمم ضعفنا الإنساني جرّاء ما جرى لنا من صور بشعة للموت الذي طال الأعزة.

ما حفِظَتهُ الذاكرة

في مدننا وتأريخها لا تخلو ذاكرة كل مواطن من صور لأحداث قاسية كانت قد مرَّت بثقلها الجائر فحصدت الأخضر واليابس، فهؤلاء جمهرة من أعداء الإنسان والطبيعة والأعراف، فقد ابتلت مدننا (تلعفر وسنجار) ببلاء الحقد الذي انصّب من لدن مَنْ يجدون في الاختلاف المذهبي أو الديني والقومي سبباً للانقضاض على الآخرين، دون رادع يوقف هجمتهم وتجاوزهم على وجود ومعتقد الآخر.

رفضوا كل ما يسمعون من حديث حول أُصول الدين، خاصة مع عملائهم من أبناء نينوى ومن مدننا، فكان حديثنا كلام طرشان، فقد امتلأت قلوبهم وضمائرهم بصورة الحقد والنميمة.

وهذا ما عانينا منه طيلة تلك الحقب، فأهالي المدينتين يقيمون مراسيم دينية كل عام، وهي طقوس لا تمس أحد بضير أو تسبب للآخرين ضرراً لهم.

لكن الحقد المذهبي ما دفع هذه القلة إلى الوشاية للعدو، فأصبحوا ذراعه الذي ينفذ قراراتهم التي كبرت واستفحل غضبها. لذا ارتكب بعض هؤلاء الممثلين للسلطة السياسية أخطاء بحقنا، مع دفن مشاعر الحقد في قلوب البعض، والذي

انفجر بعد سقوط نينوى، وظهور سلطة وداعش، فرفضنا الانتماء إلى الحزب في العهد السابق وتحملنا ما جرى لشبابنا من الويل والسجن والحرمان من التعيين في الوظائف أو إكمال الدراسة، والبعض قُتل وسجن وطرد من الوظيفة.

كان النظام السابق يحاول إبادة كل من يحاول إحياء شعائر شهر المحرم الحرام؛ وانعكس هذا الموقف وكأنه استيقظ فجأة، وتجسد في القتل والنحر على أيدي الدواعش والقاعدة، فلا تخلو منطقة مَنْ ارتكاب جماعات وأفراد أبشع الجرائم بحق أهالي هاتين المدينتين، فمن أهل تلعفر وسنجار من هاجر باتجاه الوسط والجنوب تخلصاً من موت مُحقق، والذي بقي كان يعيش حالة الحذر، وينتظر المشاهد التي تروى وتشاهَد أمام العين، من قتل ونحر ورمي الرؤوس والجثث في البرية، دون وازع ديني، هؤلاء قوم لا ضمير أودين لهم، وإلا كيف يرتكبون كل هذه الجرائم، إنهم لا يفرقون بين سني وشيعي، يقتلون كل مَنْ يعارضهم فقط يحتكمون لما يبديه الآخر من رفض لسلطتهم، أو مشاركتهم أفعالهم المشينة، عاثوا بوجود الأقليات كالمسحيين والأيزيديين، وذلك بقتل رجالهم وسبي نسائهم وإباحة أجسادهن، عشن ذليلات مسلوبات الإرادة منتهكات الشرف.

لقد مارس أولئك مع النساء ما لم تقدم عليه الحيوانات المتوحشة في الغابات، فكل خلق الله لهم أعرافهم وقيّمهم، حتى الحيوانات وأُسلوب حياتها وعلاقاتها ببعض، إلا أولئك الذي انسلخوا من السمات الإنسانية، وذهبوا بسلوكهم نحو التطرف.

وقد تأكد لنا هذا أثناء اعتقال أحدهم خفية وهو يسير بحرية مطمئناً ومغروراً

لوحده، انقض عليه الشباب وأسّروه، وأخفوه في أحد المنازل، وحينما حانت الساعة واجتمع القوم، أخذ ينظر إلينا بغضب، وهو مكتوف الذراعين، حاصره الجميع بنظراتهم الحادّة والمليئة بالأسئلة، لكنه لم يطأطئ رأسه أو يشعر بالذل؛ سأله شيخ المسجد:

- ما الذي ارتكبناه حتى تقدموا لنا الموت؟
- أجاب بسرعة حاقدة:

انكم تستحقون أكثر.

- وهل تعرفنا يا أخي في الدين؟
- عرفناه بسهولة من شبابكم.
- إنهم مفترون، وأنتم لكم دينكم وقرآنكم تحتكمون إليه.
- نحن لا ذنب لنا سوى حماية الدين.
- ونحن ألم يكن لنا دين كدينكم؟
- أنتم لا دين لكم كما أخبرنا الأُخوة.
- هذا خطأ.. ديننا الإسلام، ونبينا سيدنا محمدﷺ، وكتابنا القرآن.
- هذا غير صحيح كما عرفنا، أنتم تقدسون غير الله والنبي.
- تقصد نحترم آل بيت الرسول ولا نعبدهم.
- كلا، لا أنتم تعبدونهم وتقدسونهم في المناسبات تقيمون لهم العزاء.

- نعم، نقيم العزاء، لأنهم استشهدوا في سبيل الدين.
- قل خرجوا عن طوع الدين.

تمنى الجميع الانقضاض عليه وقتله، لكن إمام الجامع هدّأهم و منعهم قائلاً:

- ما الفرق بيننا وبينهم، نحن لا نقدم على قتل من يختلف عنا، بل نكرمه ونطلق سراحه، هكذا علمنا الدين، إذهب إلى سبيل حال.

وأمر الشباب أن يأخذوه إلى خارج المدينة وبالقرب من نينوى، ويتركوه لحال سبيله.

استغرب الرجل من كلام الإمام وطاعة الشباب له حيث بدد غضبهم بكلامه الطيب، الذي تذرع بالدين وأخلاقه، وتم بمثل ما أمر إمام المسجد، وعاد الشباب إلى المسجد بوجوه مبتسمة، استغربنا جميعاً من الحالة التي ظهروا عليها، وحينما وجدونا مندهشين ومتسائلين، والإمام في حيرة من أمره قال أحدهم:

- لا تخافوا لم نعصِ أمر شيخنا، بل أنه ظهر على غير صورة.
- قال الشيخ: ما الذي حدث له؟
- لقد تراجع عن موقفه ووعى ما قلناه والكيفية التي تعاملنا بها معه.
- ماذا : تقصد؟ قل.
- قال سأعود غداً ليلاً فلا تشكوّا بعودتي، سأسير على خطى الدين الصحيح لقد غُرر بي؛ استغرب الجميع.. وراح الشيخ يردد... الحمد لله والشكر له، لا يصح إلا الصحيح هكذا علمنا ديننا الحنيف.

مدينة الشهداء

تلعفر مدينة بحجم جغرافيتها، وعدد سكانها قدمت عدداً من الشهداء ملفت للنظر، وهي تفتخر بهم وتأريخها يُضيفهم إلى صفحاته بشرف، تلعفر لم تسقط بيد الدواعش إلا بعد سقوط الموصل.

كان ذلك جرّاء بسالة أبنائها، رجالاً ونساء وشباباً، فما إن سمعوا بفتوى الجهاد، حتى انخرطوا للدفاع عن المدينة التي هي وطنهم الصغير، وفلول داعش لا يعرفون شيئاً عن هوية أهل المدينة المذهبية، لكن أعوانهم ومَنْ تسرعوا للانخراط في صفوفهم هم من أدخلوا في عقوله بأنَّ أهل هذه المدن من الكفار فكانت خير حجة لداعش كي يرمي بغضبه على أبنائها، فصبوا حقدهم الدفين والتأريخي على هذه المدينة وسنجار وتوابعها، فقد انبرى عملاؤهم بتعريف قادة التنظيم بما يجري في المدينة، وموقف أهلها من المدعين والمفترين.

لذا فقد انصّب جهدهم لإبادة كل ما يتعلق في هذه المدن، التي لا هدف لها سوى عبادة الله وإقامة الحق بين أهلها، وعلماؤها وحماتها كانوا خير دليل على صمود أهل المدينة ودرجة إيمانهم ومحبتهم للإنسان مهما كان مذهبه ودينه، ومذهبهم يدعو إلى تعايش المسلمين مع الأيزيديين والمسيحيين فلم يكن ثَمَّة فارق يحجزهم

عن بعظهم، فقد وقف الأيزيدين موقفاً كبيراً حينما لجأ أهل تلعفر إليهم وقدّموا ما بوسعهم تقديمه، لأهل مدينة كبيرة نزح أهلها إلى مدينة صغيرة كسنجار.

وفعلاً كانت الأُخوة عنوان وجود الجميع قبل نزوح الكثيرين إلى مدن الجنوب والوسط، متحملين المصائب والصعاب أثناء عبورهم السيطرات، ووجود العصابات وهي تعبث بمقدرات الناس حتى وصولهم إلى مشارف بغداد.

كانت عيونهم مشدودة إلى مدينتهم التي تركوها مرغمين، وبعد ما قدموا من تضحيات من ذبح وقتل وتفجير، حيث تعذر الصمود، لم يسلم منهم مسجد أو منزل، يأتون إلى المدينة في كل الأوقات فيعبثون بشوارعها، ويثيرون الرعب في النفوس، قصد التأثير على أهلها وارغامهم على المدينة وبالتالي محو آثارها.

وفعلاً تحقق لهم مثل هذا الهدف؛ لكن فتوى المرجعية دفعت الشباب إلى الإلتحاق ضمن تنظيمات الحشد، فقدموا ما قدموا ببسالة نادرة حتى التحرير، لقد بدأت معاناة أهل تلعفر بعد دخول القوات الأمريكية، فما كان ممن حمل الغِل في قلوبهم أن بدؤوا باغتيال الشباب والرموز الدينية، وتفجير المساجد وبيوت العلماء ووجهاء المدينة.

إن أهالي المدينة سارعوا إلى دخولها ما إن تمَّ تحريرها، فشاهدوا الدمار الذي لحق بالبيوت والمساجد، فلم يأسف الجميع على هذه الخسائر بقدر ما كان إيمانهم بنعمة سلامة الجميع، فالبناء يعمر، أما خسارة الإنسان فلا تعوض.

هكذا دأبوا مترحمين على شهدائهم، فشمروا عن سواعدهم لإعادة الهيبة إلى كل مرفق فيها، وأولها المساجد، من أجل الاستمرار بصلاة الجماعة، وسماع خطبة الجمعة، ومجالسة شيخ المسجد والسؤال عن أُمور الدين، وقراءة القرآن بكل حرية.

وشيدوا قبور شهدائهم، فارشين عليها العلم العراقي، حمدوا الله على سلامة من بقي من أهل المدينة، فراحوا يؤسسون لما قد يقع في قادم الأيام، فقد يُعاد التاريخ بوجوه هؤلاء الذين تخفوا دون أن ينالهم العقاب، فقد وقف القانون متفرجاً عليهم. بينما عملت الحكومة المحلية على التستر على أفعالهم الدنيئة، منشغلين بأُمور تضمن لهم حقوق لا شرعية، هكذا كان الأمر لتلك المدن، ومن ضمنها الموصل التي عانى أهلها من ظلم القاعدة وداعش والمتعاونين معهم، من ضعاف النفوس وطالبي المال والاستجداء من الغزاة.

هكذا عشنا وبمثل ذلك صبرنا، فما كان إلا أَنْ يحق الحق، وعاد كل شيء إلى مكانه، فلا خسارة إلا لمن خان وطنه؛ واستجدى رفقة العدو، حيث أصبحوا اليد الطولى له والذراع التي لم تعجز عن تلبية أوامرهم.

فقد أخذهم الاثم بعيداً عن دينهم وعن علاقاتهم الاجتماعية، فراحوا يعبثون بأمور الناس، ويهددون القاصي والداني ومن يمر على سبيله في الطرقات الخارجية، قتل عشوائي وموت مستمر بلا نهاية، صبر أبناء المدن كثيراً، ووقفوا مواقف شجاعة يشهد لها التاريخ.

لا ينسى أحد موقف أكثر من شاب وشيخ وهم يقفون متحدين فلولهم، فما كان منهم إلا رميهم بالرصاص أو ذبحهم أمام الجميع. كانوا كثر لا يمكن مقاومتهم من ناس لا يعرفون سوى السلام والعيش بأمان.

كان الناس يتخفون في بيوتهم، مانعين الأطفال من الخروج إلى الشارع خوفاً من حضور داعش والقيام بالتنكيل بأهالي المدينة عن طريق قتل ونحر الأطفال ورميهم على قارعة الطريق.

فقد شهدت المدينة مثل هذه المآسي فما كان منهم سوى الحزن على فراق أحبتهم، يواسي كل واحد أخاه جاراً كان أو ابن محلة، الكل في حزن دائم، عاشوا وصبروا وما ضعف إيمانهم، بل زاد يقينهم ببطلان كل ما أقدم عليه البعض من الذين باعوا دينهم وشرف أُسرهم، فأصبحوا سمة للعار في صفحات التأريخ.

إرث الشرف

من حَقنا أن نفخر بانتمائنا إلى ثورة العشرين التي أرهبت الانكليز، وشتتت خطواتهم وخططهم، وقدّمت لهم درساً بليغاً في الكيفية التي تكون عليها إرادة الشعوب؛ نحن أبناء مدينة تلعفر كان لأجدادنا موقف مشرّف أثناء الثورة، فقد بادروا بالتمرد على سلطة الإنكليز قبل غيرهم، فقد حدثنا الأجداد عن هذا الشرف المتمثل في ذلك التاريخ الذي حفز كل من انتمى إلى الوطن، ورفض وجود الأجنبي والدخيل، وقرر كبار السن تحفيز شبابهم، وهجموا على القلعة، يوم تجمعت عشائر الثورة في قرية قبك في عام ١٩٢٠م بقيادة سليمان آغا، من هذا المكان انطلق الثوار وهجموا على قلعة تلعفر التي احتلها الإنكليز وقتلوا الحاكم السياسي والكابتن ومجموعة من أعوانهم.

وقد سقط أول شهيد في الثورة وهو الشيخ صالح، لكن الطائرات والدبابات وتنوع سلاحهم وعدتهم وعددهم حالت دون تطور الثورة، لكنها استمرت وزاد إصرار الأهالي على ردع المحتل، خاصة بعد أن تفجرت الثورة في الفرات الأوسط، حيث هبّت العشائر الأصيلة منتفضة بوجه المحتل، بكل بسالة، والأخبار تأتي مركزة

على بسالة الرجال وتحدي مدافع المحتل، بتفجير أنفسهم في زحمة العدو، أو مقاتلته ببندقية البرنو، وبكل ما يتيسر من سلاح.

المهم كانت الإرادة من دفع الجميع إلى الانخراط في صفوف الثوار، ومدينتنا من ضمنها، فرجالها لم يقبلوا بما جرى لهم، ورفضوا تدنيس أقدام الإنكليز أرضهم، كان الهجوم على القلعة درس لا تنساه الأجيال التي تصفحت ما كتبه الرواة الذين جسدوا المشاهد بصدق، فما زادوا إلا حماس الشباب لمحاربة داعش والقاعدة، ليضيفوا شرفاً آخر لتأريخ مدنهم، كما هي مدن الجنوب والوسط.

البسالة موقف، والموقف دليل على عمق الإيمان بالدين والمبادئ الوطنية، فما معنى تآزر الطوائف والأديان الأُخرى مع المتدافعين بحب المصالح والمنافع المادية والتسلط، على العكس من دافع الوطنية وحفظ شرف الناس كي لا تطال أيدي الغزاة والبرابرة شرف نسائهم كما فعلوا مع القرى المسالمة، حيث قتلوا رجالها وشبابها وأسّروا نسائها ودنّسوا الأرض الطيبة.

كنّا أُسوة مع المدن والقرى تغلي قلوبنا غضباً على من ادعى الدين والحفاظ عليه ظلماً وبهتاناً، إن الحق لا يضيع، فقد كان صمود الإنسان مثلاً تفتخر به الأجيال؛ وبسالة أهالي المدن وهم يسمعون عمّا يُقْدِمُ عليه عصابات الغزو من انتهاك للمدينة وتهديم جوامعها.

نينوى الجميلة التي تعتز برموزها وشواهدها، لم يسلم منهما شيء، ففجروا ضريح النبي يونس عليه السلام وعمارته الفاخرة، هدموا المساجد التراثية.

لم يرق لأهل المدينة الشرفاء ما يسمعون بعد أن أغلقوا أبواب بيوتهم، وضغطوا على أنفسهم من أجل انتظار الفرج دون تدنيس أيديهم بفعل الغزاة، وبنفس الفعل الذي جاء به رجالنا يتوعدون فلولهم، ومنعهم من الدخول إلى المدينة.

لذا شكّلنا فرقاً من الشباب ترصد تحركاتهم وما ينوون فعله من الجانب القتالي؛ وآخرين ينتظرون في مداخل المدينة، يتصدون لهم حال حضورهم.

هكذا فعل أجدادنا في ثورة العشرين، سواء في مدينتنا أو مدن الوسط والجنوب الذين لقّنوا العدوَّ دروسا بليغة؛ كان انتظارنا على أحرَ من الجمر، فبعد أن انقضى النهار، وحلَّ الليل، أصبح الحذر أكثر قوة، وذلك لأنهم يدبرون خديعتهم في الليل، كما هي الخفافيش، غدت عيوننا تتسع وهي تراقب الطُرق وتفرعاتها، خوفاً من التسلل المفاجئ والانقضاض على ما يتيسر أمامهم، فيردوه فتكاً وذبحاً.

كان أحد الشباب يراقب المشهد الذي أمامه، فلم تغمض له عين بقدر ما اتسعت طاردة للنوم، متشبثة بما ينقذه وأهل المدينة من الموت المحقق، كما حدث للآخرين، وحينما لاحظ تسلل أحدهم انقض عليه واحتواه بقوة، مكتفاً ساعديه ومكمماً فمه، ساعده بعض الشباب ما إن سمعوا بحركة غير طبيعية، اقتادوه مكبلاً، بينما بقي البعض يترصدون الطريق خوفاً من تسلل آخر أو جماعات.

سلموه إلى شيخ الجامع وجمع من الرجال، أجلسوه برفق، وهو مضطرب يرتجف من الخوف، بينما قال إمام الجامع مخاطباً إياه:

- لا تخف يا بني.
- ازداد خوفه أكثر وهو يرى الرجال ينظرون إليه بغضب، بينما الشيخ استمر

بمخاطبته بكل لين:

- يبدو أنك متورط في عملك، أعلمنا ما الذي كنت ترميه من دخولك المدينة؟
- هدأ قليلاً والتقط أنفاسه، قدّم له أحدهم كأس ماء، راح يرتشفه بلهفة قال:
- أرسلوني لأستطلع الأمر.
- وبعد ذلك، ماذا سيفعلون؟
- سيهجمون بقوة وعدة من السلاح.
- ما الذي يدفعهم إلى مثل هذا الفعل الذي لا مبرر له، وهل صحيح أن المسلم يقتل أخاه بدم بارد؟ ولأي سبب؟
- هذا ما يقوله كبارهم.
- وأنتم ماذا تقولون؟ ألم نعشْ معاً دون خلاف أو اعتداء بعضنا على بعض؟ فكيف صدّقتم أقوالهم؟
- هذا ما قالوه، والبعض صدقهم وانضم إليهم.
- وأنت أحد هم؟
- ماذا أفعل وكل أُخوتي فعلوا مثل هذا، سيقتلني أُخوتي تلبية لضغط كبارهم ومرشديهم.
- إلى ماذا الإرشاد؟ هل إلى القتل والذبح؟ هل صحيح ذبح الإنسان دون مبرر؟

- هذا ما أمرونا به.
- وأنت مَنْ لبى طلبهم؟
- كما ترون، أنا عبد مأمور لهم، وإلا قتلت كما تُقتلون أنتم.
- إلتفت الشيخ إلى أحدهم قائلاً:
- أكرموه فهو مّنا.

إزداد ارتجافه، بدأ ينتظر موته كما يفعل قادتهم حين يختطفون البعض، حيث يمثلون بهم أمام الجميع، وأن ساعته حانت.

- أخذ يبكي ويتوسل، والشيخ يهدئ من روعه:
- لا تخف يا بني، نحن لا نكرمك بمثل ما يكرمون أسراهم.
- وعلى عجالة حضر الرجل حاملاً صينية الطعام، وضعها أمامه.
- ونظر الشيخ لهم فاستجابوا لنظراته.
- انسحبوا من المكان، بينما بقي الشيخ معه يهدئ من انفعاله قائلاً:
- كل يا ولدي ولا تخف سنطلق سراحك بعد أن نكرمك كضيف.
- راح في تفكير طويل، بينما استجاب لقول الشيخ.
- وراح يلتهم الطعام بشراهة غير معهودة.
- اطمأن الشيخ على أن الخوف زال عن الشاب المغرر به.

دمار ومصادرة

لم تكن محاولات وجهاء وشيوخ مدينة تلعفر قد وصلت إلى نتيجة لإيقاف سُبل الموت، لذا لزم الناس الصمت والحذر بعد أن قام أفراد القاعدة، بلصق أوراق تحتوي على تهديد ووعيد إذا لم يتم النزوح والتوجه إلى مناطق بعيدة، فلا عيش لكم بيننا.

هذا ما انطوت عليه إحدى الأوراق كذلك كان البقاء مرهوناً بالموت، فسارع البعض الى الخروج من المدينة، وحينما حضر عدد منهم إلى بيت الشيخ، حاول أن يحاورهم، ظناً منه أنهم قد يتورعون ويتراجعون عن مواقفهم الجائرة، خرج إليهم بعد أن طرقوا الباب بقوة وهمجية، أرعب أفراد الأسرة خاصة الأطفال الذين يعيشون منذ دخول داعش إلى مدينة نينوى حالات الرعب والخوف وتهديد الآباء.

نظر إليهم واستغرب من عددهم الكبير متوجساً شراً استقبلهم قائلاً:

- خير إن شاء الله؟
- أيُّ خير من وجودكم بيننا.

- نحن في بيوتنا ولسنا في بيوتكم، نحن لا نزاحمكم في العيش، بل نعيش بأمان.
- لا أمان لِمن نبحث عنه، وإنما يضرنا وجودكم بيننا.
- نحن لم نكن بينكم.
- كيف أ لم تكونوا في المدينة.
- لم ينفع بكم التهديد.
- نحن نقيم في بيوتنا ومدينتنا.
- وتؤثرون على الآخرين بدعواتكم الطائفية، وتحرضون الآخرين علينا.
- نحن لم نفعل مثل هذا يا بني.
- لا تقل بني، أنت لست أبي، أبي مؤمن بالدين عكس ما أنتم عليه.
- جزاك الله خيراً.
- جزاك ولا جزائي أقل متى تتركون المدينة؟
- وأين سنذهب؟
- أرض الله واسعة.
- ما الذي يزاحمكم من وجودنا يا أخي؟
- ما تقومون به في المسجد.

- نقيم الصلاة.
- والخطب الرنانة؟
- كل صلاة بعدها خطبة ما الذي يخالف؟
- يخالف محتوى الخطبة.
- الخطبة تنطوي على الارشاد بأمور الدين، وواجبات المسلم في الدنيا.
- وغيرها ؟
- لاشيء غير هذا، وهو واجبنا كرجال دين.
- والبدع التي تُسمم بها عقول الناس؟
- ماذا تقصد؟
- أنت تعرف ما أقصد، وقد أخبرونا بكل شيء.
- قل ضللوكم.
- بل أنتم المضللون.
- أشكرك يا أخي.

هذه الصورة أنطبعت في الذاكرة كجزء من معاناة كبيرة لزمن مر، بل تبقى شاخصة في الذاكرة لبشاعتها وقسوتها، إن الذي لحق بالشيخ لم يكن عفوياً، بقدر ما ينطوي على نوع من التهديد، وبأن العدوَّ لا يتورع من ارتكاب جريمته ومع أيَّ

من أهالي المدينة، فالهدف هو ارهاب الجميع، ودفعهم لترك المدينة والتخلص منهم.

ذاع وأرعب الأهالي خبر قتل شيخ المسجد، وقسم منهم شاهدوا ما حدث، حيث سحبوه من بين أفراد عائلته وتشبث أطفاله به، متعلقين بجسده كطيور صغيرة، بينما سحبوه وسط صراخ النساء وعويل الأطفال.

وأمام نظرهم أطلقوا النار على جسده، بينما بدأ يتلوى حتى سقط، سحبوه حتى وسط الشارع، ثم داروا حوله بسياراتهم كقوم يؤدون طقوس اعتادوا عليها، وسرعان ما انسحبوا إلى خارج المدينة بمثل ما دخلوا متسللين، سرعان ما انكب على جسده الأطفال متمرغين بدمه النازف، بينما بكاء النساء ولطم رؤوسهم، أثار حفيظة الرجال الذين تجمعوا كالعادة بعد انتهاء العدوَّ من الانتهاء من جريمتهم.

كانت عيون الرجال تقدح شرراً، كل واحد يلوم الآخر عن عجزهم عن اتخاذ موقف لإنقاذ الشيخ الذي أرشدهم وعلمهم أُصول الدين.

إصـرار

بعد أن أدركنا أن العدو سوف يضاعف جهده للتنكيل برجالنا وشبابنا، استرداداً لما فقده من كبرياء جراء صمودنا المستمر وإصرارنا على التصدي له، فبعد إبعاد عوائلنا إلى مدينة سنجار، كان لزاماً علينا إعداد السلاح للمقاومة والموت بشرف.

وفعلاً أكمل الرجال الأشداء شراء السلاح من التجار وسماسرة الحروب، بعد أن وفروا المال بما تحتويه خزائنهم من حلي ومال؛ كانت أسلحتنا متنوعة، وحسب طلب الشباب والرجال ومن لهم خبرة أثناء أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، ومدى تدريبهم على نوع السلاح.

وفعلاً أصبح لدينا مجموعة طيبة ومتخصصة، وضعوا السلاح على سطوح المنازل المواجهة للأماكن التي يتوقع دخول فلولهم منها، انتشروا على معظم محيط المدينة، اوتخذ بعض الشباب المآذن ومنهم القناصة مكاناً لرصد العدو والإجهاز عليه قبل أن يتورط بالدخول إلى المدينة، أو التسلل ليلاً لغرض التفجير أو حرق البيوت.

ما إن حلَّ الليل حتى عمَّ السكون الخادع والذي دفع الشباب للتركيز ورصد المتسللين، كان الليل ثقيلاً لم نعتد امتداده هكذا، نحن من اعتاد الأمن والسلام والعيش بعفوية وطيب خاطر، حتى قلب هؤلاء المعادلة، فحرمونا من الخروج إلى المساجد بحرية خوفاً من تربص عملائهم، والانقضاض علينا خفية وبلا رحمة، إن ما واجهناه بعد احتلال داعش لم يكن متصور، فقد ركزوا ضغطهم علينا كي نضطر إلى النزوح، وترك المدينة لهم يعبثون بها، كتهديم البيوت والمساجد والمدارس وتخريب الشوارع، حيث يحولون المدينة إلى مكان يعمّه الخراب.

وها نحن نشد العزم على مواجهتهم، كل منا يترقب دخولهم وسط السكون الثقيل الذي سيسفر عن مفاجئة دخولهم كي نريهم الموت الذي أذاقوه لبعض من أعزتنا، نراقب بلهفة اللحظة التي ستكسر جار الصمت والترقب، فجأة سمعنا اطلاق رصاص قريب، وحركة غير طبيعية تحدث ممّا دفع ببعض القناصين برصد أحدهم فأرداه قتيلاً وهو يحاول التسلل، أعقبه مجموعة صغيرة تسللت من إحدى زوايا الشارع، وحين توسطوا الشارع، انهال عليهم إطلاق الرصاص كمطر لم يتوقعوا سقوطه من سطوح المنازل فسقطوا جميعاً كالجرذان، أسرع بعضنا إليهم وغنموا السلاح الذي كان بحوزتهم.

فعاد الهدوء مرة أخرى، سوى حركات الطيور والدابات، كان هدوءاً كثيفاً يُنذر بشر مرتقب، فرح الجميع بما أنجزوه من انتصار.

لقد تأكد لنا أن العدوَّ سوف لا يسكت عن كل ما حدث من خلال عدم رجوع أفرادهم متأكدين من القضاء عليهم، بعد أن سمعوا أصوات الرصاص المضاد؛

ممّا دفع مجموعة أخرى في محاولة لأخذ الثأر، متسللين من جهة أخرى تصدى لهم الشباب برصاص متقطّع، سقط منهم الكثير وهرب الباقون مسرعين، حملتهم السيارات، التي سمعنا محركاتها تهدر.

والذي زاد حذرنا وترقبنا إنهم سيدبرون عملية كبيرة بعد فشلهم في اقتحام المدينة ليلاً، استمر هذا حتى انبلاج الفجر وسماع الأذان، وسيادة ضوء النهار الذي كشف عن أجسادهم، سارع الشباب لحفر الأرض ودفنهم قبل أن تشتد حرارة الشمس.

كان نهاراً صعباً، لأننا نعرف جيداً نواياهم وردود أفعالهم، ممّا دفعنا إلى تغيير خططنا، بأن نخرج عن المدينة ونتخذ من الأماكن المرتفعة نسبياً أمكنة لرصد مجيئهم وتلقينهم درساً جديداً.

وما إن انتصف النهار حتى أجهز تنظيم القاعدة وداعش على المدينة، وراحوا يبحثون عنّا، مستغربين من فراغ المدينة من الرجال الذين قاتلوهم في الليل، ولما تأكدوا من خلوها من الرجال، راحوا يعبثون بالمنازل وركزوا على المساجد تهديماً وحرقاً، يرمون القنابل اليدوية على البيوت، أو يفجرون المنازل بعد أن يلغمونها، داروا في الشوارع بهستيرية ظاهرة عليهم.

كانوا غاضبين قد تلبستهم روح الثأر، تركوا المدينة بعد أن عاثوا بكل شيء فساداً، أما نحن فبقينا خارج المدينة لفترة من أجل الاطمئنان، مقررين البقاء طيلة الليل، فهم من سيقوم بالثأر واقتحام المدينة في منتصف الليل والتنكيل بمن يجدونه، حيث يتوقعون عودتنا إلى بيوتنا وتفقّد المدينة بعد هجومهم الشرس.

كان صبرنا كبيراً، واحتمالاتنا صائبة، فقد كرروا الهجوم على المدينة وحرق ما يمكن حرقه، لكنهم خسروا ما كانوا يحلمون به، وهو وجود من يشبع غلَّهم وغضبهم.

كانت حكمة رجالنا وشيوخنا صائبةً في نوع التصدي لهم، وحين حاول بعضنا الدخول إلى المدينة لتفقد ما تركه الأوغاد، عادوا بالخبر المثير للحزن، فهم لن يتركوا منزلاً دون حرق وتهديم، تأكد لنا أننا لن نتمكن في العيش بعد هذا الخراب، فنزحنا بأسلحتنا إلى سنجار التي استقبلتنا بحرارة وهمّة رجالها، ومن هناك بدأنا تشكيل فرق تترقب فلولهم أثناء مرورهم على الطرق الخارجية، لينقضوا عليهم بقوة انتقاماً لما اقترفوه بوحشيتهم منازلنا ومساجدنا.

وفعلاً عاد الشباب بأخبار سارة من الانقضاض على جماعات كبيرة لا يستهان بها، ففرح الجميع بما فيهم أهل سنجار، الذين تحمّلوا الكثير جرّاء وجودنا، لكنهم كانوا يشاركوننا همومنا، فالموت مثل ما تربص بنا قد ينقض عليهم، إنها مسألة زمن، فهؤلاء لا يتورعون من تصفية كل من اختلف معهم بسبل العيش بأمان.

إنهم صنّاع الموت، ما جاءوا إلى مدننا إلا للعبث والقتل بطرق بشعة يندى لها الجبين، لم يَدُرْ ببالهم أن رجالاً ينتظرونهم يلقنونهم دروساً بليغة في الموت، فبضاعتهم سترد إليهم، هذا ما ردده الرجال؛ فالقرار لا بد قبل النزوح من تلقين العدو الخسائر المنطوية على حكمة الصبر والرجولة وقوة الإيمان.

وفعلاً عمل رجالنا من الشباب والشيوخ دوراً أصبح غذاءهم الذي يلوكونه أثناء سيرهم في الدروب الوعرة التي تقودهم لنزوح إلى حيث أرض الله التي تحميهم

من وحوش الغابات الذين تجمعوا من كل فج من أجل الفتك بالناس الآمنة في مدنها.

فبعد القيام بعدة عمليات قتالية كبدت العدو خسائر في الأرواح وحرق السيارات، قرر الرجال الالتحاق بعوائلهم وترك الأسلحة لأهالي سنجار للدفاع عن أنفسهم، ما استطاعوا من الصبر كما صبرنا وتحملنا وروينا قلوبنا في الثأر من كل أفعالهم معنا، من قتل لشيوخنا وشبابنا، والاعتداء على شيوخ مساجدنا من قتلٍ وحرق وتهديم، ودعنا أهالي سنجار داعين لنا بسلامة الوصول، رافعين رؤوسنا أمام الجميع، بعضهم دسَّ في جيوب بعضنا المال ليكون عوناً لنا في الطريق المجهولة، بعيداً عن أنظارهم.

جاؤوا من كلّ حدب و.....

كنّا نسمع أخبار وصول فلول داعش إلى مركز مدينة نينوى، بعد أن أوجدوا لهم أرضية خصبة بمساعدة ضعاف النفوس، الذين انظموا إليهم، وأصبحوا دليلهم إلى كل المناطق بما تحتويه من قوميات وديانات وطوائف، لذا ركزوا على هذه المدن لأنها تروي ظمأهم للقتل وسفك الدماء؛ خاصة بعد الذي حصل مع أهالي مدينة تلعفر ويأسهم المرير من مواجهتهم والدفاع عن مدينتهم لجأوا أهالي تلعفر إلى مدينتنا واستقبلناهم بروح إنسانية، فنحن لا نفرق بين الأديان والقوميات والطوائف، فالدين لله وحده. غير أن أهالي تلعفر لم يمكثوا طويلاً، لذا قرروا النزوح خوفاً من وصول فلول داعش ويركزون على أهالي سنجار بسبب إيوائنا لأهالي تلعفر. ودعناهم على مضض، بينما بقي بعض رجالهم معنا، يحملون السلاح بقوة وإيمان أكيد بدحر العدو، لقد تأكدوا من إصرارهم المثمر، ممّا زاد من عزمنا بانضمام أُخوتنا معنا، كنا نتهيّأ لهجومهم في كل لحظة، ونسهر الليالي، وننظم جولاتنا في المدينة ومداخلها، تداركاً لأيَّ هجمة قد يدبرها بعض أفراد العدو لجس النبض ومعرفة مدى قوتنا. لكننا لم نستطع منع الداخلين إلى المدينة لأسباب تخصُّ المعيشة والعلاقات التجارية. وعلى ما بدا لنا أن بعضهم تسلل إلى داخل المدينة لأي سبب،

وعرف مدى قوتنا واستعدادنا. أوصل كل من دخل تقاريرهم إلى قياداتهم حيث خططوا لجولة قتالية أكبر، أما موقفنا فهو اتخاذ الحذر ومراقبة المشهد.

لقد كانت فلول داعش تداهمنا من كل جانب، تاركة آثار الدمار في كل مكان، ويزرعون قذارتهم وروح الانتقام في كل شبر، لا لشيء سوى كوننا من دين مختلف، هؤلاء لا يمتون بصلة إلى أي دين، سوى دين الحرب على الإنسان، وإلغاء مبدأ الإنسانية التي تجمع كل البشر تحت راية الوئام والمحبة، إن هؤلاء الذين تجمعوا من شتى البقاع لم يضعوا في حسابهم أي رؤية إنسانية في معاملة الناس، فمبدؤهم (فرقْ تسد)، والعودة بالناس إلى مجتمعات متخلفة ومتوحشة.

فكل مَن تخلص بمعجزة من أسرهم نقل المشاهد الوحشية وأساليب التعذيب وغسل أدمغة الأطفال الذين يختطفوهم من عوائلهم، ويذهبوا بهم إلى ساحات التدريب والتلقين المخالف للإنسانية، وملىء أدمغتهم بكراهية مَن يختلف معهم. أمّا النساء فقد عاملوهنَّ وكأنهن جواري عليهن أداء كل ما يتطلب منهن القيام به، لاسيّما الاعتداء الجنسي المخالف للشريعة ولكل دين وطائفة.

سمحوا لأنفسهم التجارة بالنساء في سوق النخاسة، مما ضيعوا هوياتهن وخلقوا منهنَّ ناقمات حتى على أنفسهم، فكثير منهنَّ أقدمن على الانتحار بعد رفضهن الإنصياع لهم في امتلاك أجسادهنَّ بلا عرف أو قانون، كل ما جرى وسمعنا عنه ورأيناه رأي العين بعد دخولهم القرى والمدن الصغيرة وأسر مَن تبقى من أهلها، كانوا يربطونهم بحبل واحد كالحيوانات، ويلهبون ظهورهم بالسياط والعصي لم نر حقداً كحقدهم، ولا بشاعة كبشاعتهم ولا تجاوزاً على حياة الغيركما أقدم عليه رجالهم، فراحوا يعبثون بما خلق الله بإنسان كصورته، بقينا هكذا ننتظرهم، إما الموت أو دحرهم.

كان من الصعب تحمل أفكارهم المنحرفة، وسلوكهم المشين، خاصة أولئك المنضمين إليهم من القرى والمدن، واجهنا فلولهم بشجاعة وبمعونة رجالنا من تلعفر، قتلنا منهم الكثير، لكنها العدة والعدد التي كانت لهم الغلبة، لذا لا ننسى ما شاهدنا، ونحن نختفي بين الهضاب والأحراش، بأعدادنا التي لا تقاومهم، لكن بعض رجالنا غاروا عليهم وهم يرونهم يقيدون النساء بحبل طويل ويسيرون بهنَّ على شكل شريط طويل، كانوا يضربون من تقف حافية على أرض غير سوية، مفصصة بالحجر الصغير والحصى، ساروا بهن زرافات.. زرافات تحت وقد الشمس الحارقة، وغيبوهنَّ إلى الأبد.

إنَّ الذي يحزُّ في النفس وقوف كل الجهات الحكومية في المدينة موقف المتفرج لم يبدر من أحد ولو مرة واحدة إجراء الدفاع عن أبناء وطنهم، لا ندري اللبس الذي تداخل مع موقفهم وهم يجدون أبناء جلدتهم يُساقون إلى الموت بهذه الطريقة البشعة.

إن الدرس الذي تعلمناه من تجربتنا التي أثمرت بعد جُهد كبير من المراجع الدينية من المسلمين لإنقاذ ما تبقى من أهالي المناطق التي استهدفتها فلول داعش، بحجة الكفر والزندقة، دون النظر إلى أفعالهم الشنيعة التي ألصقوا شرعيتها بالدين الإسلامي، من أجل تشويه الدين ولصق ما لا يحتمل تصوره.

لقد عانى أُخوتنا من الإيزيديين من تهجير وقتل وذبح، والأنكى من كل هذا سبي نسائنا وتغييبهنَّ إلى الأبد.

مزار شرف الدين

المقامات والمزارات والأضرحة المقدسة، لها حرمتها التي تصون قدسيتها وقيمتها العقائدية عند هذه الطائفة أو الدين.

لذا لا يجوز المساس بها وانتهاك حرمتها، فهي جزء كبير من متعلقات الإيمان من خلال رموز أثرت في التاريخ الديني أو الطائفي، من هذا وجد الإيزيديين أو غيرهم؛ إن الإعتداء على حرمات رموزهم فعلاً شنيعاً لا تقبله الأعراف الإنسانية قبل الدينية.

فقد تعرضت مزارات طائفة الإيزيديين للتخريب، معتقدين إنّ إزالتها عن وجه الأرض، يؤدي إلى إزالتها من ذاكرة وعقول أبنائها، من هذا كانت دفاعات أهالي القرى والقصبات والمدن كسنجار مشروعة وجزء من الحفاظ على وجودهم.

فقد تكرر هذا في التأريخ خاصة في العهد العثماني وما جرته أفعالهم بحق الطائفة، وحصراً استهداف (مزار الشيخ شرف الدين)، تماماً كما كرر الفعل فلول داعش والقاعدة، فأول ما استهدفوا المزار وكأنهم يمثلون نفس دور العثمانيين، بل هم خرجوا من رحم واحد، هو بث الفتنة بين الناس بمختلف طوائفهم وأديانهم،

فهم أقدموا على تهديم وحرق جوامع الطائفة الشيعية في تلعفر، وهدمت بيوتهم، وقتل الشيوخ وأئمة المساجد والأطفال والشباب دون وازع، مدّعين إن هذا السلوك المنحرف دفاعاً عن الدين الإسلامي؛ والدين براء من كل هذه الأفعال المشينة.

لقد زاد أُخوتنا من الشيعة الذين نزحوا من مدينتهم، وآثروا البقاء معنا بعد ترحيل أُسرهم، وقفنا وقفة رجل واحد ضد فكرة هدم المزار، لا لأنه بناء فحسب، بل هو رمز مهم عند الطائفة، شاركنا أُخوتنا من رجال وشباب تلعفر موقف المؤازر الصلب الدال على الموقف العقائدي الذي لا يُفرق بين الناس من خلال معتقدهم وطائفتهم ودينهم.

حاولت فلولهم بغارات منظمة ورجال كثر، لكنهم وفي كل مرة تبوء محاولاتهم بالفشل الذريع، فيقتل مَنْ يستحق الموت ويهرب من يبقى حياً، يجرّون خطوات الخيبة المرتبكة، وكل محاولاتهم انتهت بنفس النتيجة، وفي كل مرة يزداد الرجال عزماً في ردعهم وإيقاف محاولاتهم الخائبة، عمل الشيوخ على رفع معنويات الشباب وزادوا من قوة اصراهم على أن يهزموا داعش ومن انظم إلى صفوفهم لم يقف مستوى السلاح حائلاً دون تحقيق الهدف في هزيمتهم.

وكانت جيوش جرارة، تخاذلت أمام عزيمة القلة المؤمنة، وها نحن نتحدى فلولهم من جديد، لقد حاولوا اختراق الزمن للمثول بشكل قبيح نحو مدن وقرى وقصبات آمنة، شجعهم كلُّ متخاذل وحاقد في كشف هويات هذه المدن الدينية والطائفية ورموزها من مساجد ومزارات؛ ومنحوهم خارطة المناطق، وإلاّ كيف عرفوا بهذه العجالة هويات مدننا وقرانا الآمنة عبر التاريخ، ومعايشتهم لأبناء المدن دون النظر إلى المعتقد الديني أو الطائفي.

لا شك أن الزمن الذي مرَّ بالمدينة كان صعباً ومؤلماً، خاصة سقوط البعض شهداء على طريق الحفاظ على سلامة الأراضي والمزارات، كناّ ندفن شهداءنا ونؤدي طقوس الدفن، ونعوضهم بالشباب الذين وقفوا يتزاحمون للدفاع عن المزار وباقي وجود المدينة.

فلقد تعرضت بيوت الكثيرين من رموز المدينة وعشائرها كبيت (خالد) عشيرة (الفقري) و(الهسكان)، ولا ينسى أهل المدينة وقوف كلّ من (قاسم سميري) و(قاسم ششو) اللذان وقفا لوحدهما بوجوههم متحدين فلولهم بشجاعة فائقة حتى هزموهم شرَّ هزيمة.

ولكن لم يسلم من فعلهم النساء والأطفال، فقد اختطفوا غفلة نساء المدينة وأطفالهم، وضيعوا أثرهم، وهو فعل دنيء، خاصة جمعهم للشيوخ والأطفال في الساحات والإقدام على قتلهم جماعياً، أمام أهل المدينة العزل من السلاح فالأطفال يصرخون على موت آبائهم وأجدادهم أمام أنظارهم، فلا يسكتونهم إلا بالرصاص الكثيف.

كارثة مذلة تلك التي تعرض إليها أهالي سنجار وبقية المدن والقصبات ولم ينقذهم أمام سكوت وتخاذل قوات الجيش، وصمت الحكومة المحلية في نينوى، إلا فتوى السيد السيستاني(دام ظله)، حيث هبَّ الجميع للتطوع دفاعا عن الأراضي المغتصبة، وثأراً لمن أزهقت أرواحهم، فحرروا ما استطاعوا من النساء وأشرفوا على عودتهم إلى المدينة، بينما الآلاف سُقْنَ إلى أسواق النخاسة في مدن العالم.

نزوح دائم

لم يكن وجود المواطنة الايزيدية إلاّ على موعد دائم من الألم والنزوح الدائم من سجن إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى. كذلك من معاملة وحشية إلى أُخرى أكثر همجية.

لكنها تصبرت وتحملت على مضض كل هذه العقبات والفواجع، ومنها فراق الأهل وعدم معرفة مصيرهم. فقد نزحت هي وعائلتها من المدينة نحو (جبل سنجار)، ولم يمكثوا إلا زمن قصير، حيث قرروا النزوح إلى المدن الآمنة، خاصة قرار أهلها أن تكون سوريا المقام لهم. فاتخذوا من طريق (بككا لابوجيا) مسلكاً لهم، غير أن الحظ لم يحالفهم، فقد تعرضت لهم مفرزة من داعش، أسرتهم وقرروا إرسالهم إلى سوريا وعند منطقة ربيعة توقفوا لينفذوا أوامر أسيادهم، بأن صبوا مادة البنزين وعملوا محرقة واسعة، وقالوا لهم الأوامر تقتضي إحراقكم بهذه النار والتخلص منكم أيّها الكفرة.

وفي اللحظة الحرجة جاءتهم أوامر بإيقاف الحرق وجلبهم إلى سنجار من جديد. وعند السيطرة تمَّ عزل النساء عن الرجال. ولازالت المواطنة (جواهر) تتذكر كل

الذي مر بها بألم وحزن وأسف على ما حصلت عليه من اعتداء وانتهاك جسدها الذي خالف فعلهم كل شرائع الكون.. وكان سجن (بادوش) مستقراً لهم لفترة ليست بقصيرة، نقلوا منه إثر قصف الطائرات للسجن. عملوا أثناء النقل إلى فرز النساء حسب العمر، حيث فرزت البنات الشابات وذهبوا بهنَّ إلى مكان مجهول.

كان الانتقال من مكان إلى آخر جزءاً من زرع الرعب في نفوس النساء لغرض الاستسلام والرضوخ لأوامرهم، ومنها الزواج وخدمة أُمرائهم بشكل مهين، جرّاء الاعتداء عليهن جنسياً. لقد امتهنوا النساء خاصة الشابات بما لا يتفق مع أيَّ عرف أو معتقد. وإن الحجة التي ادعوها كما كانت تذكر (جواهر) ليست لها علاقة بالإسلام، خاصة بيع النساء في سوق النخاسة، وتشردهنَّ في البيوت التي تخصهم، فقد عاملوهنَّ بوحشية وامتهان جائر، بيعت كبقية النساء إلى مواطن سوري، الذي رفض الانصياع إلى فعل مهين كهذا، مماّ دفعهم إلى تكثيف المعاملة الوحشية لجعلها ومن معها الرضوخ والزواج من رجالهم القذرين.

حاول الدواعش الظهور بوجه غير وجههم، حيث نظموا مواجهات دورية مع أهل جواهر الأسرى، بعدها حاولت الهرب ومن معها من النساء والأطفال، وقد ذكرت ما صادفهم في الطريق ومنها راعي غنم مما أربكهم وجعلهم يستسلمون إلى اليأس، لكن الرجل أثاره صراخ الأطفال وخوف الشابات، مماّ دفعه إلى مساعدتهم بتقديم الماء والطعام، وتوفير الحماية لهم. لقد تأكد لجواهر أن العالم لا يخلو من الطيبين، وإن حصل وجود فلول داعش والقاعدة، وما قاموا به من جرائم يندى لها الجبين، هنالك من يرق قلبه لمأساتهم، كذلك الرجل السوري الذي رفض أن يضعها في دائرة الامتهان، ويُساهم في تعميم خطأ وجريمة لا إنسانية في بيع النساء في سوق

النخاسة كما فعل أولئك القساة في التأريخ البعيد. هؤلاء الدواعش يُعيدون أسوأ السلوك البشع في التأريخ، والأعمال التي يرفضها الإسلام والديانات والطوائف الأُخرى، لكنهم أصروا ومن معهم على صحة آرائهم الجائرة، في ما أنهم لم يأتوا إلا لتصحيح الدين، بتلك الطريقة من سلوك القتل والذبح والتهديم، وإباحة حرمة الأماكن المقدسة، كما هو مزار الشيخ في سنجار الذي دافع عنه الجميع، وقهروا داعش وهزموهم شرّ هزيمة. إنهم لم يأتوا إلا لتخريب العلاقات الدينية والاجتماعية بين كل الطوائف.

وإن ما عانته (جواهر) جزء من معاناة غيرها من نساء وشباب وشيوخ وأطفال. وكان صبرها قوي، حتى بفقد أُخوتها وأهلها جميعاً.

التآخـي

عشنا أزمنة مليئة بالتآخي القومي والديني، لا نفرق بين المسلم والإيزيدي، ولا العربي أو الكردي، كلنا أُخوة نعيش في بقعة واحدة لنا حقوق وواجبات.. لم يَخل أحد بواجبه، ولم يتخل أحد عن أداء حقوق الآخرين. هكذا سطرّ التأريخ من أواصر. أقضي وقتي كمتولي مزار شرف الدين، في استقبال الزائرين، ومن يطلب الرحمة من الله بواسطة شرف الدين. لكن مَنْ أفسد هذه العلاقات هم داعش، ومن سار في ركابهم من بعض العشائر التي لم ينظر رجالها وشبابها إلى البعيد، وباعوا وجودهم بالثمن البخس.

كنّا نعمل كل في اختصاصه كالزراعة وتربية الحيوانات والتجارة. لم يتجاوز أحد على حق الآخرين، وبسبب انسحاب القوات المسلحة المفاجئ، حيث اغتنمت داعش هذا الإنسحاب فاستولوا على كل الأسلحة المتروكة في المعسكرات، واستخدموها لمحاربتنا دونما ذنب اقترفناه، سوى كوننا من دين وطائفة أُخرى، جاؤوا بالبدع التي لم نسمع بها، مدعين الدفاع عن الإسلام. أرادوا بفعلهم أن يزرعوا الفتنة والكراهية في قلوبنا اتجاه الإسلام، دون أن يعرفوا أننا على صلة بالمراجع التي وقفت موقف

العقيدة الحقة، وصانت حقوقنا، وحرّمت الحرب ضدنا.

بعد أن قدمنا مئات الشهداء على يد العدو الجائر، الذي لا رحمة في قلوبهم. قتلوا الشيوخ والشباب وذبحوا حتى الأطفال، وقادوا نساءنا سبايا من مدينة إلى أُخرى حتى حدودنا مع سوريا، ضيعوا الكثير منهنَّ، باعوهنَّ في اسواق رخيصة دون ذنب. لم تفد الحوارات معهم ومع من نعرفهم، اولئك المنضوون في صفوفهم، لكننا كنا نواجه بالرفض، بل بتصعيد حدة هجومهم وزيادة تنكيلهم برجالنا، ضيعوا نساءنا وحرقوا المنازل والمحلات، بالرغم من مقاومتنا لهم وتكبيدهم خسائر في الأرواح إلى درجة متفقة مع قدراتنا القتالية، لكننا قاومنا جبروتهم، ولم نستسلم.

وكان إيماننا بالله أكبر حجماً من وجودهم، ولم يقصّر معنا أُخوة في النجف وكربلاء، خاصة بعد فتوى السيد السيستاني(دام ظله) وفعلاً كان لنا شرف الصمود الذي حصدناه هزيمة نكراء لفلولهم، اختبؤوا كالجرذان في بيوتهم، وكأنهم لم ينظّموا مع القاعدة وداعش، وكانوا دليلهم على تشخيص المناطق والأشخاص.

كان دفاعنا عن مزار (شرف الدين) ليس له مثيل، فقد وقف الشباب بصلابة أمام كتل صفوفهم، ورغبتهم في هدم المزار.

وبهذا لقنّاهم درساً في كيف تكون الصلابة في العقيدة والثبات على المواقف. كل هذا عكسوه في تهجير النساء وتغييبهنَّ ومعاملتهنَّ بقسوة ليس لها مثيل في التأريخ. ومن الأخبار التي وصلتنا عرفنا أن الكثير منهنَّ وقفنَ بشجاعة وتحدي، ممّا زاد من قسوتهم والتنكيل بهنَّ ضمن موقف الجبناء والمنحرفين أخلاقياً، جوزوا لنفوسهم

القضاء بشرعية الاعتداء على شرفنا بحجة كونهنّ كافرات، ونسوا أن الله خلقهنَّ كما خلق نساءهم وأن لهنَّ حقوق كما لهم ولشبابهم وشيوخهم. فكيف سولت لهم أنفسهم معاقبة الآخرين دون ذنب سوى اختلاف العقيدة، ونسوا أننا جميعاً نؤمن بخالق واحد كفيل بعقابنا أو ثوابنا.

صبرنا كثيراً ونلنا أحقية وجودنا مع أسفنا على التخلي عناّ من قبل قواتنا المسلحة، الذين تركونا لقمة سائغة بين أيدهم.

انتظـــــار

كل ما كنت أتمناه، هو الهروب والتخلص من أسر داعش اللعين الذي صبَّ علينا وعلى أُخوتنا الشيعة نار الغضب والنقمة فلم يسلم منهم أحد مازال يرفض عروضهم في اعتناق ما يؤمنون به من باطل لا يمت للإسلام بصلة، فقد عشنا وتعاملنا مع أُخوتنا من الديانات والطوائف الأُخرى ولم نجد فرقاً بيننا، فالله والإنسانية وحدتنا. كنت أعمل على إعداد الطعام لهم، وأقوم بالتنظيف بعد أن رفضت عروضهم بالزواج والاغتصاب، فما كان منهم إلا الانتقام، وأنا مشغولة بالطريقة التي استطيع بها الهرب والبحث عن زوجي المفقود. فهم فرّقوا بين الرجال والنساء، وجمع الأطفال في معسكرات لغسل أدمغتهم، واستبدالها بالحقد والضغينة حتى من أهلهم وأقربائهم.

لقد روّضوهم على اعتناق وتنفيذ أساليبهم الوحشية، بينما أخذوا النساء لامتهانهنَّ جسدياً وتزويجهن متى شاء مزاجهم، وأي نقمة هذه التي وقعت على رؤوسنا، حيث لا حول ولا قوة تنقذنا من أسرهم، فقد هرب من هرب من الجيش تاركين أسلحتهم بكل صنوفها بين أيديهم. فاستخدموها لإبادة رجالنا وشيوخنا

وأطفالنا، عشنا متنقلين بين سنجار وتلعفر وسجن بادوش، ينقلوننا متى رغبوا ليرونا مرارة الوجود، ومن ثم يجبرونا على الرضوخ لإرادتهم، ولكن هيهات يفوزون بما تمليه عليهم نفوسهم المريضة والمنحرفة، نحن مصرّون على السير وفق الأعراف التي تربينا عليها. بقيتُ هكذا أنتظر الفرصة للهروب مؤكدة اصراري على رفض عروضهم الباطلة، لم أنسَ مشهد مداهمتهم لبيوتنا، مماّ أدى إلى إغماء البنات الصغيرات، حيث يقومون بحملهنَّ على أكتافهم ونقلهنَّ إلى سجونهم تحت الأرض، وكان مشهداً مرعباً وهم يكدسون أجسادهنَّ في أحواض السيارات كالخراف المنقادة للذبح، وفعلاً لا يدفعون بهنَّ إلا للذبح إن هنَّ رفضن الانصياع لأوامرهم، كيف تجرأ هؤلاء على انتهاك أجساد العذارى صغيرات السن، إنها جريمة لا بد أن يعاقبوا عليها من لدن المحاكم الدولية.

كان انتقالي من معسكر إلى آخر محفوف بالحذر والصعوبة، لأنهم يصبون جام غضبهم علينا، والجوع والعطش، ويسومونا شتى أساليب التعذيب. أماّ وجودي في بيت أحد الأُمراء لخدمته، فقد كان يفوق معاملتهم في المعسكرات، فالأُمراء يحتقروننا، ويعاملونا على أننا سبايا لا بد من سوقنا كالحيوانات كما كان أجدادهم يفعلون. حرمونا من أزواجنا وأطفالنا وآباءنا وأُمهاتنا. حرمونا من العيش بسلام وقناعة بما نحن فيه من عوز وفاقة، لكننا نمتلك القناعة بما يهبنا الله من نعمة، على العكس من هؤلاء الوحوش. بقيتُ مدة قصيرة في بيوت الأُمراء بسبب عدم تحمل سلوكنا الذي تظهر عليه إمارات الاحتقار لهم.

طردوني إلى أقبية مظلمة، وأماكن وسخة، مكتفين بوجبة طعام سيئة. لكننا تحملنا أنا وأخواتي من البنات السبايا، متحملين كل أساليب التعذيب النفسي على

أمل حدوث الفرج الذي يسبغه علينا ربُّ العالمين، وفعلاً استطعت الهروب من جحيمهم مع أقراني، واتجهنا إلى جبل سنجار نختبئ مع الرعاة، متحملين صعوبة العيش التي لا تقارن مع سجونهم وأقبيتهم وساديبهم ومعاملاتهم السيئة. وكان الرعاة يعاملونا بإنسانية، تاركين إيانا العمل مع الماشية في النهار، وتضمنا الغرف الطينية في الليل، كان العيش هكذا أفضل بكثير مماّ كنا نعيش فيه. فثمَّة أمل بالخلاص وتوفير ما يمكن توفيره، خاصة العثور على زوجي الذي افتقدته ما إن وقعنا في الأسر بيد الدواعش.

كنت أسأل كل من يأتي من المناطق القريبة والبعيدة، أو يهرب من سجونهم عن زوجي، لكن دون جدوى. لم يغلبني اليأس لحدَّ هذه اللحظة وأنا أعيش مع ابني في خيمة بمعسكر لإيواء المشردين من بيوتهم من ضواحي نينوى لا يتوفر لنا ما يلزم من العيش الكريم، رافعة ساعدي وكفيّ إلى السماء أن تخلصنا من هذا الجحيم الذي طال أمده.

ابتكار الغرابة

لا يستطيع أن يتكلم عن كُل ما مرَّ على البشرية من ويلات وابتكار لطرق القتل والتعذيب، لكنه بالمقارنة يتمكن من تدوين من ابتكرته جماعة داعش والقاعدة ومن التف بين صفوفهم بدافع الحق ليس إلا. فكل ما شاهدناه ورويت لنا من أحداث وأساليب قتل ونحر لرؤوس أهالي المدن مثل تلعفر وسنجار والقرى القريبة وهولا يفوق ما سوف أرويه لضمير التأريخ فهو حدث مروّع يعجز الوصف عن الإلمام به والسيطرة على القدرة النفسية في روايته.

شاهدنا كيف تُجمع الشيوخ أو الشباب والأطفال في الساحات ويقومون بذبحهم على مرأى من بعضهم ومرأى من أهلهم، ثم القيام بحرقهم بعد سكب مادة البنزين على جثثهم. هؤلاء يفوقون الوحوش وقساة التأريخ. فهم من نمط آخر ابتكر أساليبهم عقل كبير، دجّنهم وروضهم مَن أجل أن يسهل قيادتهم وأمرهم لفعل شنيع كالذي اقترفوه بعد دخولهم مدينة نينوى حيث وجدوا من يناصرهم وينوب عنهم في ارتكاب المعاصي بحق الإنسانية.

وهاهم يمرحون في قراهم تحميهم عشائرهم، كأنهم قنابل موقوتة في جسد

ملغوم بالشر، سوف يهبون لأي نداء يروي ظمأهم للدم، ويسكت جوعهم لأكل لحم البشر، كما ذكرت إن ما حدث لأم داهموا منزلها واختطفوا منها ولدها الذي لم يبلغ الشهر السابع، أبقوها مجنونة، تجوب الشوارع والأزقة منذ الفجر حتى حلول المساء وطغيان الظلام على حواري المدينة، ممّا يضطرها إلى ترك الشوارع، وإيقاف سؤالها عن ابنها المفقود، والعودة إلى البيت، مبتدئة بالبكاء حتى يثقل جسدها ويتعب رأسها من طنين النهار، فيخمد جسدها كالميتة لا وعي لها لما حولها. لكن استيقظت في الصباح الباكر عند سماعها طرق الباب. خرجت مرعوبة كأنها تستقبل طفلها، كانت تقف مجموعة من رجال داعش.

نظرت إليهم مرعوبة متوسلة. كانت عيونهم شامتة وقاسية، قدموا لها قدراً كبيراً جلبه أحدهم من حوض السيارة التي أقلتهم. فتحوا غطاءه وطلبوا منها النظر إلى محتوى القدر قائلاً:

- انظري جلبنا لك لحماً مطبوخاً.
- قالت، لا أُريد زاداً، أُريد ولدي.
- لكنه أجابها:
- كلي وسنجلب لك أبنك.
- فتح أحدهم غطاء القدر، فظهرت منه سحابات بخار قال:
- أنظري كيف هو اللحم ؟
- كما ترونه يا ولدي.

- إنه مطبوخ جيد.
- كما ترى.
- ضحك أحدهم بشماتة بينما تفوّه الآخر بكل صلف:
- إنه لحم ولدك طبخناه لكِ جيداً.

ضحك الجميع، بينما صاحت المرأة بقوة ملأت الشارع، حيث تجمع الناس حولهم، ماسكين إياها وهي تحاول تمزيق ملابسها، بينما النساء يُهدئنها. وغادرت فلول داعش المكان بسرعة خوفاً من نقمة الناس عليهم حين يسمعون الخبر، صاحت الأُم:

- أنظروا لقد طبخوا لحم ولدي، انظروا إلى القدر؟ وراحت تلطم وتضرب على رأسها حتى غابت عن الوعي.

وبعد يوم حين أفاقت تأكد من حولها أنها فقدت عقلها. وما هي إلا يومان حتى فارقت الحياة.

البحث عن الجواهر

ما إن انتشر خبر الجهاد الصادر من المرجعية ضد فلول داعش والخونة من ضعاف النفوس ، حتى استبشر الجميع بالخير ولحظات بدء حسم وجودنا مع العدو، ومحو كل ظواهر الإذلال الذي لحق بنا جرّاء احتلالهم لمدينتنا والمدُن الأُخرى. كانت العوائل تجتمع مع بعضها للتعجيل بالقرار الأخير، حيث ظهر أن أفراد كل أُسرة مستعدة للالتحاق بجيش النصر، لكن الحسم كان في الاتفاق على مَنْ يتطوع من خلال تقديم القناعة، فقد كان الاندفاع شديداً. كانت عائلة أبو مراد على أشدها في الحوار، قال الأب:

- يا أولادي أنتم شباب ينتظركم المستقبل بعد أن تنجلي الغُمة، دعوني أنوب عنكم.
- نظر الجميع لأبيهم، وبرزت القناعة على محيا الأُم حيث قالت:
- أنتم تبقون لحماية البيت معي.
- قال أحدهم:

- كيف ترضين بهذا المقترح يا أُمي، الواجب علينا جميعاً التطوع.
- حسم الأب الأمر قائلاً:
- هذا لا يُحلّ إلا باجتماع الجميع في المسجد، وبوجود الإمام وكبار السن من أهالي المدينة.
- هذا ما حصل في كل بيت، فالجميع مقتنعون بما يدور في البيوت إزاء حضور الفرصة التي كانوا ينتظرونها، فلهم لقاء مع شيخ المسجد، فليس ثمَّة فرق بين الأديان، سواء كان اجتماعهم قرب مزار شرف الدين أو في باحة الجامع الكبير. وفعلاً كان الاجتماع قد تحقق. وكانت النساء يتجمعْنَ في حيّز من المسجد بينما اتخذ كل من حضر مكاناً يستطيع من خلاله إيصال صوته. وما إن حضر الشيخ ومعه بعض كبار رجال المدينة، حيت هبَّ الجميع لاستقبالهم وزاد الكلام حتى اتخذ الشيخ مجلسه على المنبر. ونظر إلى الجميع حيث أبهره تجمعهم، فحمد الله وشكره على ما تجمل عليهم بهذا الجمع الخيّر، حيث انبرى:
- لا شك إن تجمعنا هذا دال على عمق إيماننا بالله الذي يدعونا دائماً للدفاع عن أعراضنا وممتلكاتنا وديننا، فنحن ما اجتمعنا إلا لنصرة رجال الحق ودحر العدوان. وأنتم تعرفون أن أبناء شعبنا لبوا نداء المرجعية وتطوعوا في صفوف الحشد الشعبي من كل مدن العراق الجنوبية والوسطى، وها نحن نجدكم ملبين نداء المرجعية بمختلف طوائفكم وأديانكم لأن فيها منفعة لكم ومصالحكم.

- نطق الجميع بصوت واحد... كلنا فداء للوطن ولمدينتنا ومدننا وأديانناجميعاً.. استمر الشيخ قائلاً:

- بارك الله بكم.

وفجأة دخلت مجموعة من العسكريين، سلَّموا على الجميع، بعد أن وقفوا لهم واستقبلوهم بمحبة واحترام، ممّا شجع الفريق الذي حضر أن يتقدم باتجاه المنبر، بينما نزل الشيخ لاستقبالهم والجميع كانوا يقفون بهدوء، بينما قدَّم الشيخ من حضر:

- يا إخوتي هاهم قادتنا والموكلون من القيادة لاستقبالكم وتوضيح رأي القيادة في أمر التطوع. ثم صمت، تاركاً المجال لأحد الحضور الذي انبرى مخاطبتهم:

- أهلا وسهلاً بكم، نشكركم نيابة عن القيادة على هذا العزم والشجاعة، لكن للقيادة في التطوع رأي، أجمله في تطويع الجميع، ولكن ليس ذهابهم جميعاً للقتال، فقسم كبير منكم يبقون للحفاظ على أمن المدينة، كما فعلنا في المدن الأُخرى، والبعض الآخر يذهب مع مَن ذهبوا لقتال العدو.. أُكرر شكري لكم. يبقى كبار السن في المدينة، ولا نقبل لكل الشباب من القتال خارج مدينتهم. الأمر يا أُخوتي معقد والخيرين كثر، نريد منكم حماية مدنكم، بينما أُخوتكم وأولادكم يقاتلون فلول داعش في كل المدن، بارك الله بكم، وسيكون الغد حاسم لتسليحكم وتزويدكم بباقي ما تستلزم أساليب التطوع في الحشد.

استقر مزاج الجميع، بعد أن غادر الوفد المسجد بتشييع وبهجة واحترام. عاد الشيخ بعد توديعهم، وهو يتفحص وجوههم ليعرف مدى قناعتهم.

هكذا جرت الأُمور، وبنفس المجرى ذهب المتطوعون إلى جبهات القتال في المدن المحتلة لتحريرها، فقد أختير لذلك مضن يحسن استعمال السلاح، أو مَن خدم في الجيش سابقاً بغض النظر عن العمر. وبعد هذا فقد كان الزحف سريعاً بهمة رجل واحد للانضمام إلى صفوف الحشد الشعبي وكانت معجزة التحرير دفعت الجميع للسؤال والبحث وهم يدخلون المدن، يبحثون في أقبية العدو وسجونه عمَّن فُقد من بناتهم وأبنائهم. كان الجمع الكثيف يهرع للبحث عن أبنائهم وآبائهم وبناتهم المفقودين. وكان أهالي تلعفر وسنجار يتشبثون بأيَّ خبر يُسعفهم في التعرف عن مصير من فقدوه على يد داعش. فإذا سمعوا بتحرير الرجال من الأسر أو النساء، يقصدونهم للسؤال متوقعين أن يجدوا ضالتهم عن هذا الأسير أو ذاك. وفعلاً حصل ما يُسكت نهم السؤال عند البعض، كأن يكون الخبر قتل من يسألون عنه، أو ما زال أسيراً غامض المصير. فداعش قوم قساة يجهزون على أسراهم إذا ما حاصرتهم المنايا. لم يهدأ أهالي المدن عن السؤال، فقلقهم دائم ينهش بأجسادهم وعقولهم. وقد وجدوا في أخبار نقلتها لهم منظمات إنسانية، مفادها وجود أسرى محررين في سوريا، فما إن سمع البعض ذلك حتى هرعوا إلى تلك المناطق. أو يقصدون تلك المنظمات، التي تحتفظ بأسماء الأسرى الذين سيتم نقلهم إلى مدنهم، خاصة النساء. لكن المأساة مع من غلبهم اليأس حتى سمعوا خبر وجود مجموعة من المقابر الجماعية، حيث كان الدواعش، يدفنون مَن يقتلونهم في تجمعات على أشكال سموها مقابر. والحقيقة هي حفر كبيرة تضمُّ رفات القتلى والمجزوزة رؤوسهم، والمشوهين جرّاء التعذيب

والحرق. هرعت النساء الثكلى قبل الرجال والشيوخ، والأبناء وهم يبحثون عن آبائهم. كانت تلك المقابر المزاحة عنها الأتربة، تمتلئ بالناس يومياً، يبحثون عن أكياس تحتوي رفات موضوع في كيس، ومكتوب عليه عبارات تخص الاسم. ما أن تعثر امرأة على من تبحث عنه حتى تسقط على الأرض، محتضنة الكيس كطفل حديث الولادة مقمط بعناية. تبكي وتولول وتعفر رأسها بالتراب وهي تردد النواعي والأنين الموجع، تشاركهم النساء مشكلات حلقات للندب والعزاء، بينما الرجال كبار السن يحملون أكياسهم التي هيأتها المنظمات الإنسانية. وبعض من هؤلاء الحضور والباحثين عن المفقودين حتى تصل إلى درجة الانهيار أو الموت لولا إقدام الناس بإسعافها، تهدأ حيث تحمل جثمان ولدها أو زوجها لا تدري إلى أين تذهب به سواء في الليل أو النهار. كثر الباحثون عن جثامين المفقودين، ولم يعثروا على أثر لهم، لولا ما تمتلك المنظمات الإنسانية من قوائم من قتلوا أو بيعوا من النساء. لم يهدأ بال البعض بسبب عدم معرفة مصير المفقودين من العائلة فلجؤوا إلى تواصل الحياة وبناء كيان عائلي جديد، شأنهم شأن من سبقوهم من عاشوا مأساة القتل على أيدي أنظمة محتلة استهدفت هذه الطوائف، لكن ما جاءت إلا لتبحث عنهم وإبادتهم. كان وقع المأساة أكثر عذاباً من الزمن الذي عانوا خلاله من العذاب والحزن. جرت الحياة على ما يرام وراح الجميع يعزون من لم يعثروا على أبنائهم أو آبائهم أو نسائهم، وطمأنوهم على أن الأيام سوف تسفر عن شيء آخر وصورة واضحة، الله مع الجميع، وما دفاعنا عنهم إلا لحفظ كل عزيز وغالي. اقتنع الناس بالمصير المقدر وتفرغوا لبناء الحياة من جديد..

الغـــدر

احتشدت المعاناة على أهالي المدن التي غدر بهم أبناء جلدتهم، ممّن غلبت عليهم حالة الطمع والحقد الطائفي، فكانوا طعماً للخيانة وحبَّ الجاه المزيف، لذا كانت لهم حكايات يندى لفعلها الضمير فالغدر من شيمهم، والخيانة من طبعهم، تعرّض أهالي سنجار الى الكثير من الضغط والتنكيل من قتل وحرق وسبي ومصادرة لنسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم، مما اضطر البعض إلى الهجرة إلى مناطق بعيدة عن مدينتهم، ومارسوا حياتهم بشكل أكثر ضماناً لوجودهم، غير أن القدر كان يلاحقهم حتى وهم بعيدون عن مصادر الخطر، فعناصر من الخونة كانت تتربص وتلاحق أخبارهم فهم يعرفون كل من هاجر ويعتبرونه من الخونة والكفار حسب رأي أسيادهم، وهذا ما حصل لمجموعة من العمال الذين يعملون في البناء إذ كان الخونة يراقبوهم أثناء خروجهم إلى العمل وعودتهم منه، حتى ألفوا وجوههم، حيث تقدّم منهم رجل يوماً وهم يجلسون في المقهى للاستراحة، وراح يبدي لهم المجاملة قائلاً:

- العمل بالنسبة لنا صعب ومرهق.
- أجاب أحدهم:

- وماذا بيدنا لنعمله؟

- لا شيء قدرنا هكذا.

علق آخر:

- والله لو كنا بقينا في مدينتنا لكان أفضل.

- ماذا تقول يا أخي، ألا تذكر ما كنا نعاني هناك، مما اضطرنا لتهجير عوائلنا واللجوء إلى هذه المدينة للعمل لإعالتهم.

- ثم ألا تذكر من افتقد بناته دون أن يعرف مصيرهنَّ إلى الآن؟

- أقول هذا مَن حرقة قلبي.

- سنحت الفرصة للرجل الذي انضم إليهم قائلاً:

- كل ما تقولونه صحيح لأننا اضطررنا للهجرة وترك دورنا يعبث بها البغاة.

- نظر الجميع إلى بعضهم والحسرة تملأ قلوبهم. كانت لحظات مواساة منه، حتى ألفوا وجوده بينهم يومياً. حيث استجابوا لطلبه في البحث عن عمل يدر عليهم مالاً أكثر. وحين سأله أحدهم عن عمله أجاب:

- أعمل في الصب وتشييد الجسور في شركة.

- وهل يعطوكم أُجوراً أكثر؟

- والله أكثر من الذي تحصلون عليه من عملكم.

- مما طلب منه أحدهم عن إمكان العمل معه فأجاب:

- سأعلمكم يوم غد حين أفاتح المهندس بحاجتكم للعمل.

وما إن حلَّ اليوم الثاني حتى جاء والفرحة تملأ وجهه قائلاً:

- اطمئنوا حصلت الموافقة.

وطلب منهم تحضير أنفسهم للذهاب معه والعمل في ترميم بعض الجدران في بيته أولاً. فرأوها فرصة لكسب المال الذي يعيل أفراد عائلتهم. وفعلاً ذهبوا معه فرحين مبتهجين بما حصلوا عليه من عمل، سيلتحقون به ومن ثم العمل في الشركة كما وعدهم. قال أحدهم:

- مقدماً نحن نعمل في بيتك دون أُجور.

قال الآخر:

- فقط نطلب الغداء وليكن دسماً وتلك دليل ضيافتك وكرمك.

- ضحك الجميع، بينما قال الرجل:

- بارك الله بكم، أُعاهدكم بالعمل في الشركة إن شاء الله.

سارت بهم السيارة طويلاً من الزمن، مما أخاف بعضهم من هذا البُعد، سأله أحدهم:

- وهل بيتكم بعيدٌ هكذا؟

أجاب:

- الحذر واجب.

وما إن وصلوا إلى أول سيطرة، تنحى عائداً من حيث جاء بهم، ارتبكوا ما إن شاهدوا فلول داعش بهيئاتهم القذرة حتى لازمهم الخوف والدواعش لاهين عنهم ولم يدققوا في أعدادهم. عادوا إليهم وهم يبتسمون شماتة بوقوعهم بين أيديهم.

تقدم أحدهم قائلاً:

- جئتم بأرجلكم إلينا، كم بحثنا عنكم وعن أمثالكم.

قال آخر:

- وقعوا في المصيدة.

صفوهم بعد أن ربطوا أيديهم إلى الوراء، ثم نفذوا حكم الاعدام بهم، تاركين إياهم في العراء. كان اثنان منهم قد هربا أثناء انشغالهم، ولجؤوا إلى ما وراء التلة الترابية، وهم يشاهدون موت أخوتهم، متذكرين سذاجتهم في تصديق الرجل، متوعدين بأن ينفذوا حكم الإعدام به. بقوا هكذا حتى تأكدوا من ابتعاد أفراد المفرزة، خرجوا ليواروا أجساد أُخوتهم تحت الثرى. عائدين من حيث جاءوا حذرين من عيون قد تتربص بهم. قال أحدهم:

- منذ أن جاء الرجل وطلب الذهاب معه لترميم جدران منزله حتى داهمني الشك، وقلت مع نفسي، ربما أعرف هذا الرجل، أو أني رأيته يوماً.

- ولم أبح بإحساسي لكم إذ لا تصدقون.

قال الآخر:

- من أدرانا بنواياه.
- أخي هؤلاء متدربين على المكر والخيانة.
- إلى متى تبقى سذاجتنا تسيطر علينا.
- هذا ما مقدر لنا ومكتوب.
- الله أعلم.
- سوف لن أفوتها له، انتظر سنعثر عليه وهو يتصيد غيرنا، لا تنسى صورته.
- كيف أنسى صورة من واجهنا بالموت.
- سأكون عين كبيرة، بل مجموعة عيون تراقب السوق والمقهى.
- وأنا كذلك سوف لا أنسى صورته التي بعثت في نفسي الرعب.
- ما زلت أستعيد صورة أُخوتنا وهم يخرون قتلى، لا أستطيع نسيانها.

بقيا هكذا دون عمل، فقط يراقبان كل زاوية من السوق والمقهى دون عمل ينشغلون به، وقد مر زمن ليس بالقليل وهم على هذه الحال دون أن يداهمهم اليأس. قال أحدهم:

- ربما ترك المدينة هذه ليراقب أمثالنا في مدن أُخرى.

- ولكنه سيقع في المصيدة إن شاء الله.
- ألا ترى إننا نحفر في الصخر.
- كيف يا أخي. هل نسكت عن قتلانا؟
- لا أقصد هذا، وإنما أدعوك للحاق بعائلاتنا والعمل هناك بمثل ما كنا نعمل هنا.
- ونتركه دون أن نلقنه درساً؟
- ما الذي يحصل بين أيدينا حتى نفعله، لنترك الموت هنا ونعيش كما يعيش أبناؤنا.
- لا أرى هذا دون أن أُنفذ ما في رأسي من ثأر.
- أنت مصرّ وأنا لا أتركك لوحدك.

باشروا بالعمل دون نسيان ما في رأسيهم من مشروع أخذ الثأر، حتى حانت الفرصة وهما يريانه أثناء العمل، اقترب من بعض العمال وحدثهم فاستجابوا له، وحين أشر إليهما، أسرعوا متخفين عنه حيث دخلوا السيارة دون أن يلمح وجوههم، فقد يتذكرهم، انضموا مع العمال، وبعد ان سار مبتعداً عن المدينة صاح أحدهما:

- أخي توقف لي حاجة أُقضيها من فضلك؟

توقف، ثمّ نزل يتفحص السيارة. حانت الفرصة أكثر حينما رأياه وهو

ينكب على مقدمة السيارة بعد أن رفع الغطاء، هجم عليه أحدهم وأحكم السيطرة على رقبته من الخلف. في حين أحضر الآخر حبلاً وجده في السيارة. كبلاه والجميع يراقبون بخوف. قال أحدهم وهو يلهث من التعب:

- لا تخافوا، نحن أُخوتكم وهذا داعشي، سلّم أُخوتنا لسيطرة داعش وأعدموهم أمام أنظارنا، وسنريكم أثر هذا إن طلبتم.

- قال لهم وهو يرتجف من الخوف:

- ومن تكونان؟

- نحن من ضمن من أخذتنا من المدينة للعمل في الشركة، ألا تذكر لقد سلمتنا إلى داعش.

بينما أحضر الآخر قطعة حديد انكب بها على رأسه، فتفجر دماً، تركه على الأرض وهو ينتفض ويهتز جسده حتى فارق الحياة.

قال أحدهم:

- اصعدوا وسأريكم شاهد الجريمة لتصدقوا.

مواقف

بلاغة الامثال تُقاس بما تعطيه من تحقيق في الواقع فهي لم تأت إلا من تجربة وبصيرة. هذا ما قاله أجدادنا وآباؤنا نتيجة ممارستهم للحياة بشتى صنوفها. ومن الأمثلة التي اكتسبنا معناها تقول؛ الرجال تُقاس بالمواقف وهي على أشكال مثلما هي التجربة، لكن أفضلها المحفوف بالشجاعة والثقة بالنفس أمام الجبروت الذي يعمل ويسوّغ الاعتداء على حقوق الآخرين، ويقف موقف المتخاذل إزاء الطوائف والأديان المختلفة مع عقيدته، وهذا ما حدث لأهالي مدينتنا البعاج التي لا تختلف في حالها وما تعرضت له المدن الأُخرى بسبب اختلاف العقيدة والمذهب أو الدين فما اتخذه رجال داعش والقاعدة من مواجهة تنمُّ عن حقد طائفي دفين، أيقظه وجود المتعاونين معهم من الأهالي، مماّ أفرز السيئ من الناس الذين أصبحوا العيون الدالة على مَن هم مختلفون معهم في العقيدة الصحيحة، وبين من قاموا بتوظيف الدين لصالح مصالحهم ومصالح الأجنبي المحتل، مصالح من أوجدهم كقوة مضادة للإسلام، عبر اعتناق الإسلام كذباً ورياء وهذا ما حدث في التاريخ القديم من تحالفات الهدف منها ضرب العقيدة بالصميم عن طريق تبنيها، والدليل على هذا مواقفهم التي أكدت جريمتهم في انتهاك أهالي المدن شأنهم شأن ما اقترفوه في المدن

والقرى الأُخرى من قتل وذبح وحرق بعد تهديم البيوت والمساجد.

كانت غاراتهم مستمرة على المدن، خاصة مدينة البعاج التي تعرضت لهجوم شرس، قتلوا وحرقوا وأسروا عدداً من الشباب لم يسلم منهم سوى عدد قليل، عانوا من أساليب التعذيب وانتهاك أجسادهم، أما الطائفة الأيزيدية فقد تعرضوا للإبادة الجماعية، بما فيها قتل الشيوخ والأطفال والشباب وسبي النساء وبيعهنَّ في سوق النخاسة. إن تعرضاتهم وسيطراتهم، عطلت من تقديم المساعدات الغذائية لأهالي المدينة الذين يتضورون جوعاً، ممّا سبب مجاعة دائمة، والعمل على الهجرة إلى المناطق القريبة، لكن أكثرهم تعرضت له سيطراتهم ودورياتهم، وجرى لهم بمثل ما جرى للآخرين، قادوهم إلى الأقبية والسجون السرية، وأخذوا النساء سبايا من أجل تزويجهنَّ بالإكراه، أو امتهانهن في الخدمة في بيوتهم ومضافاتهم. لكن الجميع كانوا يتعرضون لمثل هذه الحالات بصبر دون أن يركعوا لإرادتهم في تغيير إيمانه، مستسلمين لإرادة الله التي هي فوق الجميع، صبر من تبقى من أهالي المدينة، ومن تجرعوا سمَّ الانتهاك. لكنهم أبوا أن يستسلموا للعدو، فقد قرر رجالنا أن يعدّو لهم قدر ما يستطيعون من أسلحة لحماية ما تبقى، وفعلاً حصل شيء من التحول في حياتنا، فسارع الشيوخ قبل الشباب لتلقف السلاح الذي جلبه الرجال من مدن أُخرى بأثمان كبيرة، إذ خضعوا لطمع المرابين وتجار السلاح، إذ هانت الممتلكات أمام ذل مرتقب على يد العدو وأولهم من تعاون مع داعش، ليفرزوا سمهم وغلهم الدفين، لم يتصور أحدنا أن هؤلاء ممن عايشناهم أن تكون قلوبهم بهذه القسوة، درَّب الذين تمرسوا على استعمال السلاح الشبابَ ليتمكنوا من القتال، وجرى هذا على عجالة فأصبحوا أكفاء بسبب اندفاعهم لحماية مدينتهم وأعراضهم، قام أكبرنا

سناً بتوزيع الواجبات، فمنهم من بقي متجولاً في أزقة المدينة، والبعض الآخر على حدودها يراقبون العدو حينما يخطط لمداهمة، طال الزمن بنا ونحن على هذا الحال، بينما انشغل مَن بقي في المدينة ومَن اتخذ من سطوح البيوت والمنائر ملاذاً له، وكان الهدوء المخيف يزداد، ونحن متأكدون أنهم منشغلون بمدن أُخرى، لكنهم سيعودون إلينا من جديد، هذه عادتهم في القتال الكر والفر، واختيار الفرصة للانقضاض على كل ما تبقى من أهالي المدن وسلب ما يمكن سلبه من أموال وقطع أثاث نادرة، لم يسلم منهم طفل ولا شيخ ولا امرأة عجوز، كأنهم سقطوا من نيزك جحيمي يحرق الأخضر واليابس. وفي ليلة كانت مرتقبة بسبب حذرنا الشديد، تسلل نفر منهم وتوزعوا في أزقة المدينة وشوارعها، والجميع اتخذوا الصمت غطاء لهم، راحوا يرشقون أبواب البيوت وجدرانها بالرصاص الكثيف كعادتهم، والجميع صابرون، ربما كان الزمن بالنسبة لنا طويلاً، ولكن هذا ما أمرنا به شيوخنا، ذوو التجارب الغنية في القتال. فجأة انطلقت رصاصة من أعلى المئذنة، وهي إشارة للجميع ببدء القتال. وفعلاً انهالت عليهم النيران من كل الجهات، فتخلخلت صفوفهم وحاول بعضهم الهروب بمفرده تاركين سياراتهم، غير أن بعض المقاتلين استقبلوهم بالرصاص فسقطوا صرعى واحداً تلو الآخر، ولقد لقناهم درساً سيصل صيته إلى الأرجاء فيدفع الجميع لاتخاذ موقف كهذا لحماية مدنهم، لم يستطع أحد منهم الخلاص من رصاصنا، الكل انهاروا موتاً بمثل ما كانوا يفعلون بشبابنا وشيوخنا، وضعناهم في أحواض السيارات وأبعدناهم عن المدينة، عاد الشباب مشياً بعد أن تركوهم في العراء، مؤكدين لأنفسهم ان يلزموا الحذر والحيطة من ردة الفعل التي قد تصدر من أعوانهم. وفي اليوم التالي حضر جمع غفير من القرى المتاخمة لمدينتنا

مدججين بالسلاح، وبعد أن أشادوا بمواقفنا وباركونا على عملنا قال أحدهم وهو منَ يقودهم:

- بارك الله بكم يا أُخوتي، جئنا لحمايتكم من ردة فعل العدو المرتقبة، كما تركنا الشباب والشيوخ يحمون قرانا، وبعضهم سيلتحقون بنا بعد أن يجمعوا السلاح خاصة العتاد. احتضن الشيوخ شيوخهم، والشباب شبابنا، فأصبحنا كتلة واحدة لا تدانيها كتلة مقاتلين بعون الله، عاش الجميع بأمان وتآخي، كانت فرصة للحوار والتخطيط والعمل على تنظيف شوارع المدينة من دمائهم القذرة والنتنة. وبدأ الكبار يدربون الشباب على استعمال السلاح خاصة السلاح الذي جلبه القوم معهم لإسعافنا، كنا مسرورين ونحن نتدرب على هذه الأنواع خاصة سلاح القنص الذي يتطلب قدرة فائقة على الرصد والتنفيذ. أصبح كل منا وبهذا الزمن المضغوط مقاتلاً متمرساً وقادراً على الإغارة بعد أن كان للحماية فقط. كانت هذه النتيجة قد أسرت الآباء وهم يجدون أبنائهم بهذه القدرة من استعمال السلاح ومن الاندفاع والغيرة على أرضهم، ذاع صيتنا بين المدن، حتى أهلنا النازحين في المدن الجنوبية وحضر جمع كبير منهم لينظّموا إلى صفوفنا، مما ملأنا بالغبطة وريح الأمل بأننا قادرون على حماية أنفسنا، وتضاعف هذا أكثر بعد حدث الجهاد وانبثاق الحشد فقد جاء بين صفوفنا من شبابنا العدد الكبير، وانظّم الكثير من الشباب، فأصبح الجميع قوة كبيرة لا يمكن قهرها، هكذا تكون المواقف التي رواها لنا أجدادنا وآباؤنا، فكانت لنا درساً بليغاً لا يضاهيه درس.

اختطــاف

أصبحت السمة البارزة لِمَا أصاب أهل المدن المنكوبة، والتي تسللت فلول داعش والقاعدة نحوها، هي الحذر والحيطة وعدم الاستقرار لما قد يفاجئ المرء من أحداث، فالخطف السمة الأكثر بروزاً وتكراراً، إلى جانب سبي النساء وعرضهنَّ في أسواق النخاسة. وبمثل ما حدث في المدن، فقد تعرض شيوخ وشباب مدينة البعاج للخطف فمنهم من قتل بالرصاص أو ذُبح كما تُذبح الخراف، ثم الدفن الجماعي لجثث المقتولين أو المختطفين وبعض الأحيان يُدفنون وهم أحياء، لقد كثرت المقابر الجماعية، كأن التاريخ يُعيد نفسه بمثل هذه الأفعال الشنيعة، فقد استصرخ مواطن من المدينة مطالباً بإنقاذ المختطفين:

- ليس من المعقول البقاء على هذا الصمت وأخوتنا يؤخذون باستمرار لمصير غامض أجاب أحدهم وكان قد قتل ابنه على مرأى من عينيه:
- وما عسانا نفعل والجيش تخلى عنا

شارك آخر:

- لا أشك فقط بل أنا على يقين بأنها مؤامرة تستهدفنا.

- ربما يكون مثل هذا وارداً، لكن ما عسانا نقدم عليه لنكون غيارى على ما نملك.

- بإمكاننا فعل كل شيء نقاتلهم بأي وسيلة.

كان الحوار يدور هكذا، ولكن دون جدوى، مما سبب لهم حالة من اليأس كأقرانهم. غير أن ما اقدم عليه مواطن وهو في مقتبل العمر، إذ وقف بشجاعة فردية وتصدّى لفلولهم قتلاً بسبب تعرضهم لحلاله، كان يبدو ثائراً ومتوتراً لا يعرف من يقف أمامه، ممّا حدى بالآخرين للوقوف إلى جانبه، كانت شجاعته يحكى عنها ويتندر بها الرجال والشباب، فهي مضرب الأمثال لشجاعة الرجال وقوة إيمانهم وعمق عقيدتهم، ورسوخ وجهة نظرهم بأن هؤلاء شرذمة لا بد أن ينتهي دورهم كسابقيهم، وقف أمامهم وتعرض إليهم بالكلام، وهو يعرف أُولئك الشرذمة التي باعت ضمائرها ووقفت إلى جانب العدو بخذلان وطمع في المال والجاه. وقف يحاججهم، بعد محاصرتهم وتجريدهم من السلاح بالقوة، قال مخاطباً باستهانة :

- ما الذي دفعكم للانضمام إلى صفوفهم؟ لم يُجب أيٌّ منهم بكلمة، بل كانت نظراتهم مليئة بالحقد.

وعلق أحد الشباب:

- إنه المال والجاه.

- هم بلا جاه، لأن الذليل لا جاه له.

- إننا نعرفكم جيداً، فأنت وأنت من القرية..... وأنت من العشيرة..... ألا تعرفنا جيداً كنا سوية نعيش بأمان وقناعة.

عّلق رجل كبير السن:

- لا تتعبوا أكثر فهم مطايا لداعش الكفرة.

استفز أحدهم الكلام فانبرى:

- داعش ليسوا كفرة، بل همهم تأسيس الدولة الإسلامية العادلة.
- الدولة العادلة تخطف النساء وتنتهك أجسادهنَّ.
- إنهنَّ كافرات، وقد دخلنَّ الإسلام الآن.
- تعني دخلنَّ دون إيمان، بل بالقوة.
- المهم أسلمنَّ.
- فأسلمنَّ وأصبحنَّ جواري في بيوتهم أو مخادعهم، أليس كذلك؟
- هذا استحقاقهنَّ.

سارع الرجل كبير السن بالقول:

- يا ولدي لا تتعب نفسك كما قلت لك، هذا لا يعرف الندم لأنه بلا دين.

ثم استل بندقيته ورش جسده بالرصاص، أرداه يتمرغ على الأرض يلوث جسده التراب. بينما بدأ أصحابه متخاذلين متوسلين. قال الشيخ، بعد أن طلب

السماح من الشباب، فأجابوه بتحريك رؤوسهم بالإيجاب.

قال الشيخ:

أنتم مخيرون، إما أن تعودوا من حيث أتيتم أو تلتحقوا بعشائركم، وهذا الأفضل لكم يا أبنائي، ثم دفعوهم، فراحوا فراداً يركضون باتجاه المجهول.

بينما صرّح الشيخ:

- علينا أن نضاعف يقظتنا ونزيد من إعداد صفوفنا.

حرّض مَن معهم من الشباب والرجال وحتى الشيوخ ممّن يستطيع حمل السلاح، لكي لا تتكرر جرائمهم كما حدث في المدن الأُخرى. كانوا ينخون بعضهم بعضاً، متحملين شدة الحصار الذي طوقوا به من سيطرات داعش بمنع دخول المواد الغذائية من أجل فرض ظاهرة الجوع على أبناء المدينة. غير أن رجالها من ذوي الحكمة، اكتفوا بما تنتجه أرضهم، وما يحصلون عليه بالطرق السرية لتهريب المواد، وأهمها الطحين، بمساعدة الخيرين من القرى والقصبات المجاورة وحتى البعيدة منها كالمدن الجنوبية والمقدسة وما كانت تقدمه من مساعدات عوضتهم عن طلب الحاجة، وردع خطط العدوَّ الجائر.

كان صبر البعاج بأهلها الكرام مثل يُحتذى به ويفتخر بأفعالهم ومواقفهم الصامدة في التأريخ، كما افتخر وسجل مواقف السابقين، فما هي إلا زمن قَصُر أو طال حتى تنجلي هذه السحابة السوداء كما كان يدور من أفكار في رؤوس الرجال، دفعهم إلى جمع شملهم، والتهيؤ لكل طارئ قد يحدث. فهؤلاء القتلة يتربصون

بالإنسان مهما قَرُب أو بَعُد فالهدف هو تدمير الوجود الإنساني وتخريب كل ما يُعينه على بناء حياته وحياة ومستقبل أبنائه، لعل صمود المدن عبر ورود أخبارها ساعد على أن تقف الأُخرى وهي تحذو حذوها في الصمود، كان هم الجميع هو عدم تكرار جربة مدن مثل سنجار وتلعفر في مدينة البعاج، فهي صامدة برجالها، وفعلاً عمل الجميع كل وفق ما أُنيط له من واجب فترى بعضهم يتسلل ليلاً ويعود كذلك وهو محمّل بالمواد الغذائية التي يصعب نقلها نهاراً، هكذا صمدت المدينة بوجه الوسائل القذرة التي اتبعها العدو حتى تمَّ تحرير كل المدن ورفع الحصار عن المدينة بفضل مَنْ تطوع في الحشد الشعبي، سواء من المدينة نفسها أو المدن الأُخرى خاصة الجنوب والوسط، كانت تجربة ومخاض من الصعب نسيانها، فهي من دروس التاريخ فالقلة تنتصر على الكثرة بقوة الفكر والعقيدة والإيمان بالله.

تطـوّع

الفتنة والتفرقة أهم الوسائل التي يستطيع المحتل بسط نفوذه على المدن والبلدان التي يحتلها، وهذا ما حصل مع المدن المتاخمة لمدينة الموصل كسنجار وتلعفر وغيرهما، فقد حاول المحتل من داعش وقبلهم تنظيم القاعدة، وبمساعدة المتخاذلين والخونة، وتراجع الجيش عن الدفاع عن المدن وترك أسلحتهم وناقلاتهم بيد العدو واستفاد منها في حرب الأهالي وتقوية سلطته على الأرض.

وبالمقابل كان أهمُّ ما توصّل إليه أبناء المدن التي وقع عليها الحيف والتركيز من قبل فلول داعش؛ هو زرع الفتنة بين أهالي تلك المدن، والفتنة تعني خلق ظاهرة الكراهية والحقد بين الأُخوة الذين عاشوا العمر منذ الأجداد مسالمين متّحدين مع بعضهم متعاضدين في المناسبات المفرحة والحزينة، فقد خلقوا لأنفسهم وحياتهم طقوساً وأعرافاً خاصة كونها أصبحت قانوناً عشائرياً ومدنياً يسيرون وفق أُصوله وقيّمه والتقى به من باب الوفاء للأجداد وكل تأريخهم المشرف، ممّا وطّد العلاقة بينهم على مرَّ الأزمنة، فشعار (فرق تسد).

كان رائد تلك الجماعات التي لم تأتِ إلا من عمق التخلف حاملين في رؤوسهم صور الدمار والتخريب لكلّ ما يساعد على بناء الحياة، والعمل على عكس هذا بأفعال مرتجلة من منطلق الطائفية، فهم يقومون بالتخريب والقتل، ويبثون أفكارهم لتملأ رؤوس من لم يتسلح بالمعرفة، ويكتفي بأفكاره الهجينة والطائفية والتي تركز على أن الذي قام بهذا الفعل هم الشيعة.

ومرة يقلبون المعادلة، فيكون أهل السُنة هم المستهدفون، غير أن هذا لم ينطلِ على الجميع، فالهدف واحد لم يصدقه أبناء الطائفتين ذوي الإيمان الراسخ والمتحلين بالمبادئ والخلق الراقي، لذا كانت مقاومة العدو استمرت على جهديهما، دون النظر إلى ما يبثه أعوان داعش ومن انظّم إليهم لبث التفرقة والشك، الذي هو الآفة التي تفتك بالجميع.

كانت نتيجة وعي هذا الادعاء أن انخرط الجميع في صفوف الحشد الشعبي، لمقاومة وقهر العدو، وكانت الفرحة غامرة وأهالي تلك المدن من انبثاق هذه القوة التي سمحت لهم للتطوع في صفوف الجيش، دفاعاً وإثباتا لحرصهم على حياة كل مَن جاورهم وشاركهم في تأريخ هذه المدن العريقة، التي صمدت أمام هجمات العدو الهمجية على مرَّ الأزمنة والعصور، وإن سر بقاء المدن وبقائِها عامرة منبثق في نهضتها من خرابها والكامنة كقوة في مواقف ناسها وإيمانهم بالحق ونحن في مدينتنا ومَن جاورها نعيش تحت هيمنة القناعة والعمل على احترام مَن جاورنا، مقدمين البراهين الدالة على هذه المحبة الدائمة والعريقة في تأريخنا جميعاً، لم تشهد مناطقنا تشوهاً مثل ما حصل حين دخول هؤلاء القتلة أرضنا ومدننا، خاصة نينوى.

ففي كل زمن يُعيدون بناء مدنهم، بعد أن دافعوا عنها بكل ما يمتلكون وأعطوا التضحيات الجسام لقهر العدو الدخيل، وحصلوا على فرصة هي تشكيل جيش منظم رديف للجيش.

كانوا ينتظرون مثل هذه المبادرة التي انخرط في صفوفها الكثير، وخصوصاً توفير السلاح لهم، ممّا حدى بهم لإثبات قدرتهم على حماية أرضهم وحضارتهم من تدنيسها من قبل هؤلاء الذين ما اجتمعوا إلا من أجل التخريب والدمار.

فالعدو لم يكتف في احتلاله لمدينة الموصل والمدن الأُخرى، بل بدأ بتخريب كل الرموز التراثية والمساجد وكل ما يتعلق بتأريخ المدينة الآشورية.

لقد كان يثيرهم أن تكون المدينة معتزة بتراثها عبر الاعتناء برموزها القديمة، لذا لم يتوانوا في هدم الصروح والمواقع الآثارية، فقد غدت كل المواقع خراباً، ممّا خلق ردة فعل كامنة في ضمائر أهل المدينة من الغيارى، فقد واكبوا الجهاد متحملين نتائج الحرب من سقوط البعض شهداء في سبيل تحرير مدنهم.

كان الشباب سباقين في دحر العدو، غير مبالين بما يلحقهم من أذى، فهي فرصة كانوا ينتظرونها، وقد لا تتكرر، فبعد التحرير كانت فرصة للبحث عن المفقودين والنساء المسبيات، حيث دخل شباب المدن مع الحشد متطوعين، لم يشاهدوا سوى الخراب الذي عمَّ كل زاوية من محافظة نينوى، أقبية وسجون ومغارات صنعوها لقهر وإخافة الأسرى.

ووجد الشباب جمع من النساء في حال يرثى لها، وسمعوا تأريخ دام طويلاً لفتيات صمدنَّ أمام المفترين الذين قرروا زواجهنَّ من مقاتليهم، فما كان منهم إلا أن

وضعوهنَّ في أقبية سرية وانفرادية، دون طعام أو شراب، حتى أُزهقت أرواحهنَّ.

هذا ما روته الفتيات السجينات، حيث كثرت الروايات التي صرّحت بما كان يقوم به أُمراء التنظيم إزاء مَن لا ترضخ لإرادتهم، يجمعوهنَّ ويحشروهنَّ في سيارات تحت وقد الشمس أو برد الشتاء القاسي، دون دثار ونصف عاريات، يسيرون بهنَّ نحو سوق النخاسة للبيع الرخيص.

حاول الجميع ترميم ما فقدوه سواء كان في نفوس الأسرى، وما لحق بالمباني، ومدن ليست صغيرة هجرها قسم كبير من أهلها، عاد أليها مقاتلون يمسكون بكل مداخلها ليراقبوا ما قد يحدث من جيوب العدو وهو يتلقف أنفاسه، خاصة المتورطين في الجريمة، والذين عادوا إلى قراهم، فهم قنابل موقوتة يتوجب مراقبتها ورصد تحركاتهم خاصة أنهم بدوا مرعوبين بعد أن رحل من يقويهم منهزماً، إذ خرج معظمهم بطريقة منظمة وتركوهم يحملون عارهم الذي لا يمكن التخلص منه.

اجتمع معظم أهل المدينة والتفوا مع مَن عادوا من المهجر، واجتمع الجميع في المساجد والبيوت الكبيرة العائدة لكبار السنَّ والشيوخ للتخطيط بعقل راجح لتنظيم المدينة بكل مرافقها وبناياتها العامّة ومساعدة من تهدمت دورهم ونهبت ممتلكاتهم، عبر التعاون بين الغني والفقير، لم تكن فكرة الحيازة قائمة بعد النكبة الكبرى، فقد أصبح كلُّ شيئ متاحاً للجميع.

هذا ما خطط له شيوخ الجوامع وأئمتها من خلال الخطب بعد إقامة الصلاة الجماعية في كل وقت، لقد أصبح اللقاء في الجوامع سلوكاً يومياً لم ينثنِ أحد عنه، بل تواصلوا مع ما بنوه، فسهلت السيطرة على المعوقات التي واجهت فقراء المدينة من إعادة الوجه المطلوب في حياتهم.

كان الجميع يشكرون الخيرين ومن ساهموا في توعية الشباب، سواء في ظروف القتال أو البناء، كان الناس قد شكّلوا خلية دؤوبة، فما إن يجد المرء أنّ له حاجة يود تلبيتها حتى تجدهم أمامه ملبين ومحققين كل ما ينوي القيام به ويتمناه، وكثرت القصص والروايات على لسان الصغير والكبير، وجميعها تصب في مدونة المدن التي تعرضت للمحن طيلة فترة الاحتلال، وكانت للجميع حكمة ستظل راسخة في الذاكرة، وهي ذاكرة تحافظ على تأريخ المدن المناضلة والمجاهدة.

حزنٌ دفين

كل المدن طغى عليها الحزن، ولازم حياتها في كل الأزمنة، فهي وريثة أحزان أبدية، ممّا رسم على مُحيّا أهلها أثناء تسلط داعش الحزن والأسف على هذا المصير الذي اجتمعت في خلقه أطراف كثيرة، فزاد حزنها على كل ما كان يجري ظلماً على مرأى الجميع، دون أن ينصر أحد وجودهم، لذا أصبحوا لقمة سائغة في فم الغول اللعين الذي اجتاح المناطق التي تأوي الطوائف من الايزيديين والشيعية وغيرهم، فأوقعوا فيهم فتكاً كما روى كلٌّ من اكتوى بنارها المستعرة، والبعاج أيضا من المدن التي لم تتخلص من حقد أولئك القادمين من شتى بقاع الأرض دفاعاً عن الدين والدين براء منهم ومن أفعالهم، فكل ما يسأله القاصي والداني عن أفعالهم، يطلق حسرة لا على وجود هؤلاء، بل خيانة مَن انظّم إلى صفوفهم، وتغاضي القوات المسلحة التي كانت متواجده هناك عن الدفاع عن شعب أعزل ومسالم، بل تركوهم لوحوش ينهشون بلحمهم حد القضاء الكامل لوجودهم، أجبروا الناس على ترك المدن وجعلها لا تحتمي إلا بفراغها المميت، فالمكان بشاغله، فكيف بشاغله تركه مضطراً، يبحث عَمَّن اختطفوا أولاده وبناته، وتركوا الجميع سبايا للتأريخ المظلم الذي تعاون على خلقه مَن ساعدهم وكشف عن هويات الناس الأثنية، ممّا

سهّل الإنقضاض عليهم بقوة السلاح لا بقوة الإيمان، وأكثر من شهد بتلون هؤلاء وعودتهم إلى عشائرهم بعد أن غيروا هيئاتهم القذرة كأسيادهم من رجال القاعدة، وهاهم يعيشون دون آباء، ينتظرون الفرصة للانقضاض من جديد، ويعودون إلى سابق عهدهم.

لقد قهرهم أهالي البعاج برجالها الأشداء الذين لا يهادنون العدو والمدّعي بالدين ظلماً وبهتاناً، لقد كانت هذه الظروف الصعبة درساً لكل مَن امتلك ضميراً لا يقهره الأدعياء والمفترون، فجميع الذين انظموا للدفاع عن مدنهم التي اجتاحها الظلام كان لهم الشرف في كونهم لم يتخلوا عن شرفهم وعرضهم ومبادئهم النبيلة.

لا شك أن توفر الظروف التي تحمل الاستقرار والأمن والسلام سيكون أمام الجميع الحفاظ على ذاكرة تلك الظروف، وهذا ما سوف يقرره الشباب من خلال توفير فرص تأسيس ذاكرة تحفظ كل ما مرت به مدنهم كالمتاحف الصغيرة، والمدونات التي تحمل بين طياتها صور المشاهد المؤسفة في ظروف قاهرة هي من أصعبها في تأريخ الأُمم والشعوب.

قررت مجموعة من الشباب إنشاء مشروع توثيق كل ما مرَّ بهم، حيث اجتمعوا في مقهى صغير في مدينة البعاج، ودارت بينهم الأحاديث وطرح الأفكار، وكانت تسود بينهم المحبة واحترام الرأي حتى ولو كان مغايراً، جلس الجميع متقابلين على طاولة واحدة، وبعد شرب الشاي انبرى أكبرهم، وهو صاحب المشروع المقترح قائلاً

- لا شكَّ أنكم سمعتم عن مشروعي أليس كذلك؟

قال أحدهم:

- سمعنا عنه، لكننا نريد أن نسمع منك عن تفاصيله.

- طيب وأنا حاضر لذلك؛المشروع يتضمن توثيق الظروف التي مرَّت بمدينتنا وبأهلنا، فالشعوب تؤرخ لأزمنتها، والشاهد على هذا ما قام الآشوريون مجسدين في مجموع الآثار التي تركوها لنا والتي أغاضت العدوّ فهب لهدمها ومحو أثرها، ونحن موكلون بالحفاظ على تأريخنا.

- كيف سيتم انجاز مثل هذا المشروع؟

- نحن.. وكل على وفق اختصاصه في الرسم والنحت والكتابة بأجناسها، دراسة وبحث، قصة ورواية.

- ينجز كل منا ما يُناط به.

- وكيف يستطيع انجاز هذا لوحده؟

- سنتشاور فيما بيننا ونتقصى القصص من أفواه الأهالي. ونبدأ بالعمل.

- وأين سنحفظ مثل هذه الوثائق؟

- لقد فاتحت إمام الجامع ورحب بالفكرة وأبدى استعداده لتوفير المكان وتشييده على نفقة موارد المسجد، لأن المشروع خيري ويخدم كل الناس، سوف يتبرع البعض لبناء مكان واسع تتوفر به كافة مستلزمات العرض.

اندهش الجميع وتعجل أحدهم:

- إنه مشروع كبير، يبدو أنك ضبطت كل مستلزماته.
- طبعاً لأنه يهمنا أولاً كشباب، وبالتالي يهمُّ كل أهالي المدينة، وسوف تجد في كل مدينة متحفاً شبيهاً، ويجب أن لا نضيّع الفرصة فالزمن لا يرحم والذاكرة ستضعف.
- لم يبقَ لنا إلا العمل ما دام الأمر متهيئ لنا.
- ابدؤوا كل في اختصاصه.
- ماذا تعني بذلك؟
- أعني نحن لا نفرض العمل على كل منكم، بل العمل الحقيقي والغني ينبثق من الرغبة والاختصاص. فكاتب القصة سوف يدون ما يرويه الناس، وكذلك كاتب الرواية أمّا الفنانون وتشعب اختصاصهم، فهم يعملون كل باختصاصه، معتمداً على كل ما يرويه الأهالي، وما يتخيله بنفسه، وما توفر له تجربته باعتباره من المدينة. فليس من بيننا من لم يتضرر من الاحتلال، أما كلفة الأعمال فقد حسبنا له كما حسبنا للمكان.
- هذا جيد ومشجع.

فض اجتماعهم، حيث قرر كل واحد منهم الاعتماد على امكانياته المادية والاختصاص، استمر العمل، فالبعض وفروا بيوتهم للعمل في بيت واحد، خاصة

الرسامين والنحاتين، أصبحوا كخلية واحدة تعمل على التشاور والإطلاع على بعض الأعمال قبل أن يقدموها إلى اللجنة التي يترأسها إمام المسجد، وبعض الموظفين في دوائر المدينة ممّن لهم اهتمامات بهذا الشأن.

كان العمل يجري، بحسب ما خطط لهُ وكانت هناك اجتماعات دورية للوقوف على المنجزات، والغريب في الأمر انضمام بعض الموظفين إلى المجموعة، وأبدوا استعدادهم للمشاركة بمواهبهم من جهة، وتمويل المشروع من جهة أُخرى.

هذا التطور أبهر أفراد اللجنة المُشكلّة بالبداية، خاصة إمام المسجد، حيث استجاب أئمة المساجد الأُخرى لهذا المشروع، فوجد عندهم حضوراً في كل المجالات.

وما إن حل موعد اجتماع اللجنة في المسجد، حتى انبهر الجميع من المنجزات التي قدّموها، وكانت بذرتهم الأُولى تبشر بانجازات مهمة وحقيقة، طال الاستفسار والحوار مع كل من هيّأ مشروعاً، وكان الحوار جادّاً وينحو إلى الاختصاص، قرأ البعض قصصهم، وأصحاب البحوث تقديم محتوى بحوثهم، كذلك الرسامين في لوحاتهم، هيّأ إمام المسجد غرفة لحفظ المنجزات، ريثما يتم انجاز البناية.

طال الزمن وطال، لكنه كان مليء بما هيّأ الجميع أعمالهم باستمرار، وأهل المدينة يتابعون الأخبار ويتحرقون شوقاً لرؤية مثل هذا المشروع، لم يكن صعباً على الجماعة انجاز ما زالوا قد أنجزوا تحرير المدينة من أيدي العدو، فكان يوم الافتتاح مناسبة لا تضاهيها أُخرى.

حضر الكثير، ويمكن أن يكون كل أهالي المدينة اصطفوا وملؤوا الشوارع والأزقة المؤدية إلى بناية المتحف، وحينما دخل إمام المسجد وبعض المسؤولين، ورأوا الأعمال تضاعفت دهشتهم، وانبهروا مما رأوا من انجاز وتنظيم، كذلك أصبح حديث الناس الدائم لكل ما رأوا، والكثير منهم خاصة النساء ذرفوا دموعاً حارقة مستذكرين من افتقدوهم، ذلك أن بعض الفنانين وضعوا تماثيل مجسمة لبعض الشهداء والشهيدات، وصور سبي وقتل الأطفال والشيوخ.

الخلاص مُعجزة

في هذا الزمن كما يقول المهندس ناظم؛ فيه من الإعجاز الكثير لاسيما حينما بدأ الموت خيمة فرشت أطرافها على كل الأمكنة، وقدر يتربص في كل زاوية من الشوارع والأزقة، ففلولهم منتشرة تتشبث بالذي يخرج من بيته لقضاء حاجة تخصه، أو يذهب إلى نينوى لأمر رسميّ أو تطبيب.

وهذا ما حصل له مع عدد من الموظفين وهم يغادرون تلعفر لأمر رسمي، حيث تعرضت لهم مفرزة من الدواعش وملحقاتها، أوقفوهم ودون سؤال قتلوا بعضهم، بينما جازف المهندس باغتنام فرصة انشغالهم بأمر الذبح، ففرَّ بعيداً عنهم حاملاً دهشة ما رأى من مشهد القتل أمام عينيه، كانت السكين وهي تمرُّ على رقبة المجني عليه مرة فلا يستطيع المذبوح من التخلص من بين أيديهم ولا يسمحون بأي كلام فقد كمَّموا أفواههم وربطوا أيديهم إلى الوراء، قال المهندس ناظم كنت أراهم تباعاً وأنا أتخفى وراء الجدار في زاوية لا يراني أحد، فهم مشغولون بمشروع دسم كما كانوا ينعتونه.

ودام الذبح طويلاً وهم ملتذون بما يمارسونه من عمل بشع يندى له الجبين. تمرغت أيديهم بالدم، وحينما انتهوا مسحوا أكفهم بسراويلهم، وانسحبوا وتركوا الجثث لمن يقلها إلى المقبرة الجماعية المعدة دائماً. فانتظرت الفرصة وخلو المكان منهم،

وانسحبت خفية عائداً إلى مدينتي. هذا ما ذكره صديقي في الدائرة المهندس ناظم.

ومن هذا قرر كل الموظفين عدم الذهاب إلى الموصل، لصعوبة الظروف واشتداد الضغط، رموا جثثهم في عرض الشارع كما قال، حيث منعوا كل مَن يقترب منهم، فيكون مصيره القتل أيضاً، فهم يفخخون الجثث لمضاعفة الخسارة في الأرواح.. لقد شاهد كل تلك المآسي، خاصة بعد عودته إلى تلعفر من طريق بعيد عن مفارزهم، التي انتشرت في كل مكان وبسرعة مذهلة، فقد حاول أن يتخفى عن عيون من خان العلاقة والدين وانظم إلى صفوفهم، تلك الثلة الباغية التي أقدمت على أفعال لا تليق بهم باعتبارهم من أهل تلك المدن.

فقد جاءوا بمركبات مليئة بالألغام والعبوات الناسفة المعدة سلفاً ووزعوها على تلك المدن، كذلك مواد سريعة الاشتعال، وهذا معناه أنهم أعدوا العدة للانتقام من كل من سوف يخالفهم من أبناء هذه المدن.

وكم كانت الفرحة بحلول قوات المتطوعين لتحرير المدن، وسرعان ما تطوع الكثير من شبابهم في صفوف الحشد، بينما استعد البعض وهم موظفون في بلديات المدن للعمل على إعادة تأهيل شوارع المدن، وتنظيم الحياة، قدر ما توفره الظروف والإمكانيات المتاحة.

كان الأمر صعباً جداً، بسبب ما قامت به فلول القاعدة من تدمير البنية التحتية، بما فيها الشوارع والأبنية الحكومية والمساجد، فقد أزالوها عن بكرة أبيها، لم يبقوا لها شاهداً يُذكر.

لقد استهدفوا كل ما من شأنه تسهيل الحياة للناس، فقد أظهروا عداءهم ليس للإنسان فحسب، بل للطبيعة ومستلزماتها الضرورية.

وما إنشائهم للمقابر الجماعية التي هي حفر كبيرة، إلا مخالفة لشرع الله والدين، فكيف يُرمى المسلم في حفرة كما لو أنهم يرمون نفايات، كان مشهد المقابر التي لا تُحصى يثير الحزن، ويبقى حياً على مر الأزمنة.

كانت الناس ترى بعيون ثكلى ما يقترفه العدو، ممّا ترك في نفوسهم الرعب وحب الانتقام من كل مَن يقع بأيديهم.

وما حدث لصبي لم يبلغ السادسة عشرة من عمره، والذي فقد الأب والأخ فبقي يتيماً يملأ قلبه الغضب، أعدَّ نفسه للانتقام حينما تحين الفرصة لذلك.

وكان يتجول في الشوارع والأزقة والجميع يرونه هكذا معتقدين أن مسّاً من الجنون انتاب صحته، وكم حاولوا تهدئته ولكن دون جدوى.

بقي هكذا لا يؤويه سوى الظلام الذي يلف المدينة، سرعان ما تداهمه الأحلام فيستيقظ مبكراً متواصلاً بجولته التي لا تنقطع، صامتاً يسير ومصفر الوجه، وسقيم الجسد والكل يراه ويحاول البعض ايقافه وإسعافه بطعام أو شراب، بعد أن عجزت الأُم ايقاف جولاته اليومية وإبقائه في البيت، لكنه كان يرفض بصمت، ولا تدري الأُم هل اخّرس ولدها أم أصابه الجنون؟ فلا جواب يسكت حزنها على حاله، فقد افتقدته مع والده وأخيه الأكبر، حيث نحروهما أمام عينيه وأحرقوا جسديهما أمام أهل المدينة، وقتها فر الصبي هائماً في البراري ولم يعد إلى البيت إلا بعد أيام، أشعث الشعر ممزق الثياب معفر الوجه والشعر.

شغل أهل المدينة أمر الصبي، وأصبح محور كل من جالس صاحبه في المقهى أو المسجد، ولا حل له، بل مشرداً بقي في النهار، وقلقاً في الليل، وكاد المرض أن يفتك به.

وكان يجلس لساعات طويلة يترقب الشارع متكئاً على عمود الكهرباء، تحرقه الشمس في الصيف والبرد يقرصه في الشتاء، ولا يدري كل من رآه ما الذي يخطط له، وماذا ينتابه أثناء الجلوس وحيداً، طال به الزمن مقابل اضمحلال صحته، فلم يبق بارزاً في هيئته سوى عينيه الباحثتين عن شيء مفقود، ولكن لم يصدق كل من رأى ما فعله الصبي وهو يلمح بعض أفراد عصابة داعش يتنقلون دون سلاح، فقد تركوه في سيارتهم.

وما إن اقتربا منه حتى انتفض كحيوان شرس، تجمعت في جسده كلُّ القوة، واجههم وهو يخرج مدية طويل حادّة، راح يطعن في البطن بانفعال لم يترك لهم القوة لمقاومته فقد نفدت طعناته أولاً في منطقتين مهمتين في البطن، اندلقت أحشاؤهم فجأة وسقطا أرضاً والناس قد اجتمعت وهم يرون الصبي يطعن ويطعن ممزقاً أجسادهم، ويطعن في كل جزء من الجسد، بعدها رفع رأسه إلى السماء، وأسرع مهرولاً دون هدف، وبقي الناس يسألون عن وجهته، حيث بقي لغزاً كبيراً لم ينسه أهالي المدينة، وكم كانت رغبتهم انجاز تمثال له، لكنهم راحوا يبحثون عنه خارج المدينة علّهم يعثرون عليه كي يُعيدوه إلى أُمه الثكلى.

ولكن دون جدوى، ولم يدر بخلدهم أنه لا بد أن يكون في مكان يهمه كثيراً، مكان يربطه بأبيه وأخيه اللذين رآهما بأم عينيه وهما يواجهان مصرعهما، لذا اتفقوا على الذهاب إلى المقبرة، يبحثون بين تراكم القبور، فبحثوا كثيراً بسبب سعة المقبرة.

وما إن رأى أحدهم الصبي وهو يتوسط قبرين متجاورين منكفئ على وجهه حتى نادى على الجميع، اقتربوا منه بهدوء خوفاً من إخافته، وحينما اصبح بعضهم قريب منه، حاولوا إيقاظه، لكنه لم يستجيب، حاولوا تحريك جسده فوجوده هامداً دون تنفس أو حركة تنم عن حياته، امتد بين قبرين قرير العينين.

مأساة فريدة

حكايات الاحتلال كثيرة، وكثيرة هي عبرها ودروسها، غير أن أهمها مَن وجهة نظر من اكتوى بنارها وفقد عزيزاً عليه من شباب وفتيات تمَّ اختطافهنَّ وسبيهنَّ دون رحمة، من هذا وغيره من الدروس استقر حال الناس على حقيقة تقول بأن الذنب والعيب ليس في الأمريكان وفلول داعش فكلاهما يمثل المحتل ولا يمثلنا، بل فيمن يمثل طبيعتنا المتخاذلة التي هزّها الخوف وأصّل الرعب والانحراف في المعتقد عبر إشاعة واستنهاض الحس الطائفيّ الذي كَمُنَ في الذات الضعيفة، وأميط عنه اللثام ما إن اتسعت دائرة الاحتلال فأظهر الوجه المرائي للحقيقة، فالأمريكان محتلون حاولوا تكييف واقع الأرض والمجتمع لإرادتهم وأهدافهم التي جاؤوا من أجلها، وفلول داعش والقاعدة نتاج لهم ووجه من وجوههم العديدة، هم أفراد مأجورون يستخدمونهم كأدوات لتحقيق مآربهم الاستعمارية.

هذا ما آمن به كل وطنيّ في الموصل وتلعفر وسنجار وبقية القصبات والقرى المبثوثة في رحاب الأرض حول نينوى. لقد اتضح للعيان لكل من قدّم تضحيات من أجل مصلحة مدينته وعرضه وملكه وكرامته، أنّ كل الأمر ينصّب على مَن أعانوهم

من أهالي تلك المدن، وصدّقوا الكذبة الصغيرة التي كبرت، حيث زاد عملائهم من بعض العشائر ورؤسائها من الشيوخ، لذا وجد أهالي تلعفر شأنهم شأن المدن الأُخرى التي صمدت وفق إمكانيات أهلها في التسليح والعدد وأن لا خلاص إلا بالصبر والجلد، وتأدية الواجب بكل ما أُتيح من إمكانيات ذاتية.

لقد ضرب العدو على وتر الفتنة الطائفية حيث أصبح البعض لا يطيقون رؤية مَن كانوا يجالسونهم بالأمس، وآثروا الجلوس وخدمة أسيادهم القذرين حتى في أبسط شروط اللياقة.

لقد انطلت عليهم الكذبة، فكبروها بحجمٍ ربما أذهل العدو الذي وجد فيها صورة بعيدة عن تصوراتهم، فكان ما كان، جبناء دفعوا بكلابهم المسعورة لنهش لحم الأُخوة بالأمس القريب، والأعداء اليوم، هؤلاء لم يرف لهم جفن وهم يشاهدون السبايا تساق من قبل داعش كالمواشي، وهو اعتداء على شرف النساء بأبشع أساليب الإذلال. كل من بقي على قيد الحياة ورأى ما تجسد من أفعال الذين كانوا داعشيين أكثر من الدواعش، لذا لم يرحم من تطوع في صفوف الحشد هؤلاء، بل أجهزوا عليهم لإسكات أصواتهم التي بحت من كثرة دعواتهم للدين والإسلام المزيف الذي جاء به هؤلاء المأجورون.

لقد بذل رجال تلعفر من العقلاء؛ منشيوخ ورؤساء عشائر ومعممين وسادة ومثقفين، بأن بذلوا جهوداً لإقناع هؤلاء من الزمر التي تورطت معهم، لكنهم أَبوَا المصالحة مع مَن حاولوا التنكيل بالجمع الخيّر، وكانت ردود أفعالهم قاسية، بأن أجهزوا على الناس العزّل، وأقدموا على أفعال لم يُقدم عليها وحوش التأريخ؛كقتل

الأطفال أمام مرأى آبائهم وأُمهاتهم، وقتل الرجال أمام أبنائهم، وحرق جثثهم؛ والتنكيل من خلال جريمة طبخ أجساد الأطفال الرضّع وتقديمها كوجبة غذاء لأمهاتهم. أيَّ جريمة مثل هذه يمكن مسامحة مرتكبيها والوقوف مكتوفي الأيدي دون قرار بمحاسبتهم، كيف يمكن للعزّل من السلاح والذين كبلتهم الدهشة وهم يشاهدون ما يجري أمامهم.

غير أن الأمر تغير ما إن دبَّ الاستقرار وزادت النقمة على هؤلاء المنحرفين، وانكشفت الصورة فاندفع الأهالي لدراسة الأمر مع شيوخ المساجد التي تم هدم بعضها، لدراسة ما ينتظر مَنْ بقي في المدينة.

تمَّ اللقاء في أحد البيوت خوفاً من مداهمة العدو المسجد، وحينما اكتمل وجود الوجوه ومّن بينهم الشباب ودار بينهم الحديث وطال الحوار في الكيفية التي يمكن بواسطتها حماية المدينة. بادر بالحديث إمام المسجد قائلاً:

- أُخوتي ما اجتمعنا إلا من أجل التفكير في الكيفية لحماية مدينتنا.
- ونحن حاضرون شيخنا.
- حرام ترك كل شيء بأيدي هؤلاء، يعبثون بنا كيف ما يشاءون.
- والله هذا حق وواجب علينا وليس على غيرنا.
- علينا أن نبتعد عن الفتنة التي سوف يبثون بذورها بيننا.

أسفر اللقاء باتفاق الجميع على جملة أمور أوضحها الشيخ:

- علينا أن نصغي لبعضنا دون انفعال، بل برغبة تنطلق من حاجتنا ورغبتنا في التخلص من كل ما يحيطنا من شر قد يستفحل شيئاً فشيئاً.

قال أحد الحضور:

- نحن مستعدون لكل ما تراه مناسباً.

- أنا انطلق من مصلحة المدينة وأسلوب حمايتها وإعادة من هاجر مرغماً خوفاً من سبي بناتهم، فالعرض عزيز يا أُخوتي.

- وما تراه نراه جميعاً.

- أرى أننا يجب أن نكون على استعداد إلى ما يمليه علينا الزمن، فنلبي نداء أيَّ صوت يأتينا من أُخوتنا من الجنوب والوسط، فهم معنا قلباً وقالباً.

- وهل ثَمَّة ما استجد في الأمر.

- نعم، ثَمَّة متغيرات، فالجميع في مدن الجنوب والوسط لا يتوانون عن مساعدتنا وقد وصلني أنهم عازمون على التطوع والوصول إلى مدننا والمشاركة في الدفاع عنها، فما علينا إلا الاستعداد لاستقبالهم والمشاركة معهم.

- نحن من يبادر بما نمتلك من سلاح بسيط، لكنه يُعيننا على اتخاذ موقف من هؤلاء.

- هذا ما أراه في طبيعة غيرتكم على المدينة.

انبرى شاب في مقتبل العمر معلقاً:

- أنا أمتلك أكثر من قطعة سلاح يمكن توزيعها على الشباب.

قال آخر:

- وأنا كذلك.

قال الجميع بصوت خافت:

- نحن جميعاً يد واحدة.

هكذا تمَّ انهاء اللقاء، وبعد هذا نظّم الشيخ أمر خروجهم بشكل لا يلفت نظر أحد. ودام التسرب فترة طويلة، ولم يُثر وجودهم أحداً، فالكل ينتظر ما سوف يستجد بعد أن يصل مَنْ فوضوهم الذهاب إلى مدن الجنوب والوسط لتنظيم الحضور، وما سوف يتغير من حال.

والذي كسر جمود الصمت ما صدر عن المرجع الاعلى من فتوى، فاستبشر الجميع خيراً. وراح الجميع يبدون الاستعداد لاستقبال ما سوف تأتي به الأيام. طال الزمن والذي بقي في المدينة حافظ على حمايتها، فارتسمت الفرحة على وجوه النساء والأطفال والشيوخ، وعادت الحياة إلى طبيعتها، وما إن زاد حراك الزمن حتى سمع الجميع ما أنتجته فتوى السيد، فقد بدت حركة تشكيل جيش رديف للجيش، وعاد مَنْ وفد إلى المدن الأُخرى مشبعين بالأمل والتفاؤل.

استقبلهم الجميع بشكل مكشوف هذه المرة، ووجد الشباب الموفد مدى استعداد أهل المدينة من حمل للسلاح وتراص الصفوف فزاد انشراح صدورهم.

وكانت بشائر وصول فصائل المقاتلين تصل تباعا، وإزاء هذا تم تهيئة مَن يتطوع من شباب المدينة في قوائم سوف يسلمونها إلى المسؤولين لإتمام كل مستلزمات التطوّع، واتفق على هذه الحالة أن يتطوع من خدم في الجيش بقدرته على استعمال السلاح، وهكذا أسفر اجتماع أهالي المدينة وشيوخها، حيث أصبحت المدينة مستعدة للدفاع ومواجهة كل انسحاب للعدو من مدينة نينوى.

إشارة

للتاريخ منافذ كثيرة يعرفها أهل الاختصاص، ولعلنا لا نجانب الصواب إن قلنا إن الأدب والفن من أقدم وأشهر منافذه، واذا كان التاريخ سجلا للوقائع والأحداث والتحولات الكبرى، فان الفن هو سجل حركة الروح في فضاء الواقع.

هذا العمل هو من ضمن سلسلة أعمال أدبية، كابدت أسوأ الفظاعات التي ارتكبتها زمر القاعدة وداعش في العراق، وعبرت عن أكثر لحظات التاريخ سوادا، لكي تروي لنا ما حدث هنا على أرض العراق، في مخاضاته العسيرة.

وقد عملت الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة على توثيق أهم وأخطر مرحلة مرّت على العراق في تاريخه الحديث من خلال موسوعة وهي (موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق من العام ٢٠٠٣ ولغاية العام ٢٠١٧م) ، وجاء التوثيق من لدن لجنة عليا في العتبة المقدسة، على جنبتين، الاولى الجنبة العلمية المعتمدة على الاحصاءات والوثائق والشهادات، والجنبة الثانية هي الجنبة الأدبية التي استقى الأدباء في مجالات (الشعر، والقصة، والرواية، والمسرح) موضوعاتهم الابداعية لإنتاج نصوصهم الأدبية من الوقائع التاريخية التي وثقتها الجنبة الاولى،

وبهذا يكون عمل الجنبتين من لدن اللجنة عملا تكامليا ، يشد أحدهما عضد الاخر، وعلى الرغم من أن الاحداث التي رصدها الادباء المبدعون ممن أسهم في حركة التوثيق بجنبتها الادبية من هذه الموسوعة كانت في مجملها أحداث تاريخية واقعية، لكن الأدباء أجروا عليها بعض التعديلات الفنية التي تسهم في وضع المسوح الادبية على النصوص الابداعية، من أجل تحقيق الشعرية التي لا يمكن توافرها في الكتابات من دون اجراء الصياغات الابداعية في النصوص الادبية سواء أكانت سردية، أم شعرية، أم درامية، أم تشكيلية وسوى ذلك، لكنها جميعا تروي حكاية فينيق البلاد الذي ينبعث من رماده كل مرّة نافضا موته، هازئا بقاتليه . في الختام ، فإن توثيق الاحداث أدبيا لا يقل أهمية عن توثيقها علميا عبر الوثائق والاحصاءات والشهادات، بل قد تكون اكثر وقعا؛ لأنها تعتمد على الواقعة التاريخية من جهة، وعلى العاطفة الانسانية من جهة اخرى، أي انها تضغط على ذهنية المتلقي معرفيا وعاطفيا.

المحتويات

المحتويات

استهلال ٧
لحظات مرّكزة..... ١١
سينوا الصامدة ١٥
نزوح قسري..... ٢٠
صراع الأضداد..... ٢٤
الخــراب ٢٨
ما شهدته الأيام العصيبة..... ٣٣
قصف متواصل ٣٧
بربرية وتوحش ٤١
مرويــات..... ٤٤
العــودة ٤٨
دُعاة ومفترون..... ٥٣
ما حفظته الذاكرة..... ٥٨

مدينة الشهداء..... ٦٢
إرث الشرف ٦٦
دمار ومصادرة ٧١
إصـــرار ٧٥
جاؤوا من كلَ حدب و..... ..... ٨٠
مزار شرف الدين..... ٨٣
نزوح دائم ٨٦
التآخـــي..... ٨٩
انتظـــــار..... ٩٢
ابتكار الغرابة..... ٩٥
البحث عن الجواهر ٩٨
الغـــدر ١٠٣
مواقف ١١٠
اختطـــاف..... ١١٤
تطـــوّع ١١٩
حزن دفين..... ١٢٤
الخلاص معجزة..... ١٣٠
مأساة فريدة..... ١٣٤
إشارة..... ١٤٠
المحتويات ١٤٣